أحمد سمير

أحمد ١٩٨١

محمود ابراهيم

«ليس هذا ما حدث.. هذا ما رأيته مما حدث..»

دار الشروق

الغلاف: رجائي عبد الله
الطبعة الأولى ٢٠١٥
تصنيف الكتاب: مقالات قصصية

دارالشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٠٢٣٣٩٩٢٤
www.shorouk.com
رقم الإيداع ٢٥١٩٩/٢٠١٥
ISBN 978-977-09-3373-2

أحمد سمير
أحمد ١٩٨١

دار الشروق

في البدء

ليس هذا ما حدث.. هذا ما رأيته مما حدث..
ربما تكون قصتي وربما تكون قصة جيل..
أكتب لأني أحب بعضهم وأكتب كي لا يحبني بعضهم.
كنت أكتب لأميز العالم، الآن أكتب كي لا أتغير.

إهداء

إلى نهى بدر
إلى مَن لم أكتب عنها ولولاها لما كتبت عن أيٍّ من هؤلاء

الباب الأول:
العائلة
(قصة فاطمة حزينة.. لكن فاطمة مبهجة)

ماما = البهجة

١٩٥٢

فاطمة كامل، الطفلة التي كانت تبكي كثيرًا أعطوها لجدتها لتربيها. تقول لي: ده كلام والنبي؟ ما كل العيال بيعيطوا.

قيل لفاطمة إن جدتها كانت مريضة حين ولادتها وعندما رأتها شُفيت، فصممت أن تربيها ببيتها.

عند جدتها هي مدللة أكثر من أخواتها ومصروفها اليومي أكبر من أخواتها، لكنها -ببساطة- ليست مع إخوتها. أخوها الأكبر -بحكم سِنه- كان مَن يعي عزلتها ويهتم بأن يخرج معها.

بعد سنوات يأتي العريس نسيب أخت الأب فيتحمس أبوها للعريس كي لا تتضرر زيجة أخت الأب. العريس لا تحبه لكنها لا تكرهه، هو طيب ومثقف ويمكنها أن تحبه مستقبلا.

فيما بعد ستحبه، ستحبه جدا، المشكلة أنه فيما بعد سيمرض.

١٩٩٩

فاطمة لا تشاهد أفلام النكد، ومن مرض زوجها بعد ٣ أعوام من زواجهما لا تشاهد سوى أفلام مبهجة.

تقول لي مَن قضت ٨ أعوام مع زوج مصاب بالفشل الكلوي وهي تقلب في جهاز التحكم عن بُعد لتهرب من فيلم تراه حزينًا: أصعب شيء في الدنيا دي المرض، أصعب من الموت، مبخافش من حاجه أد ما بخاف منه.

٢٠٠٠

لا أفهم أمي، تنتفض حين تراني أدخل بالصحون إلى المطبخ وتسألني بجدية: ليه بتعمل كده؟ هو أنا عيانة يا بني؟

بعدها بأسبوع واحد ومع أول خلاف بيننا تصرخ في وجهي: كفاية الكسل اللي بيجري في دمك ده بقى، أنت عمرك ما بتعمل حاجة في البيت.

٢٠٠١

لسنوات تحذرني فاطمة من السياسة، اللطيف أن كل مَن كانت تحذرني من صداقتهم لخطورتهم كنت مَن أقنعتهم بالاشتغال بالسياسة، حاولت إيضاح هذه الحقيقة لها لكنها كانت تهز رأسها رفضا مُصرة أن هناك آخرين أشرارًا يلوثون أفكاري. تتساءل: نفسي أعرف بتستفيد منهم إيه، مضيع وقتك وعمرك عليهم ليه؟

مع الوقت كفت أمي عن محاولة إقناعي، شعرت بعدم الجدوى فرأيها أني أقول لها «حاضر» ثم أنفذ ما في رأسي في النهاية.

الجميل أن «حاضر» هذه كانت تسعدها لأنها تريحها، لكن السعادة لا تدوم. في السنة الخامسة لي بالجامعة وبعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بأسبوعين تهزني أمي لأستيقظ قائلة: أحمد، أحمد.

ألتفت إليها نصف واعٍ فسمعتها تقول وهي تمد لي ورقة: أمين شرطة بيقول إنه من أمن الدولة ساب لك دي.

طالعت ورقة الاستدعاء سريعًا، أقرأ فيها«برجاء التكرم بالحضور للقاء الرائد هشام بمباحث أمن الدولة...». تقطع قراءتي لتسأل عما تعرف: إيه ده؟

أردد هراءً، متصورًا أني أطمئنها، فتقاطعني قائلة كأنها لم تسمعني: كنت نسيت إن ده كده كده حيحصل، كنت نسيت؟
قبَّلتني وسكتت ومنذ لحظتها ولمدة ١٤ عامًا وأنا أراها تدعو لي أن يحفظني «منهم».

٢٠٠٣

في يوليو تزوج أخي، وفي أكتوبر من نفس العام التحقت بالجيش ليختفي ولداها فجأة خلال ٣ أشهر.
يزورها أخي بدأب ويشتري لها زوجًا من العصافير لتسليتها، بينما اشتريت لها ريسفر (دِش) لكنها اشتكت لي يومًا أنها جاءت من العمل يوم الأربعاء وأغلقت مزلاج الباب. وعندما نزلت للعمل يوم السبت فوجئت بأن الباب لا يفتح لأنها أغلقته الأربعاء. نزلت إجازة فاستقبلتني وفي يدها ورقه كانت ترسم فيها وهي وحيدة.
- بترسمي إيه يا جميل؟
ابتسمت بارتباك وهي تحاول قطع الورقة لكني سبقتها إليها. تناولت الورقة المرسوم بها وجوه باسمة بينما أسمعها تقول: رسمت ناس بيضحكوا. يضحكوا، وحيضايقوا نفسهم ليه يعني؟

٢٠٠٤

تعود فاطمة من العمل حزينة بعد سرقة حقيبتها. تدعو صديقتها على السارق فتسكت أمي طويلًا ثم تلتفت لها قائلة: ربنا يبارك له فيهم، أكيد هو محتاجهم. هو فيه حد بيسرق من باب الهواية يعني؟
يبدو على صديقتها التذمر فتسألها فاطمة بجدية: حنستفاد إيه بس أما ندعي عليه ويتئذي؟
ثم تلتفت لي وتقول ببساطة: كلنا حنموت، مش مستاهلة تشيل من حد.
لا أطيق فكرة اختفاء أمي التي ترددها كثيرًا، ربما لأني أعلم أنني سأختفي بعدها.

٢٠٠٦

في بداية خطوبتي أقول لها: نهى بتحبك يا ماما.
ترد بحسم: لا مش بتحبني.
أنزعج فتبدأ في شرح نظريتها: أما أعمل لها حاجات حتحبني، أما أقف معاها وأنت مزعلها وأما أشتري لها هدية فوق شبكتها اللي أنت جايبها لها، أما تحس بجد إني خايفة عليها وشارية خاطرها، ساعتها حتبقى بتحبني. ده الحب اللي بجد وده الحب اللي أنا مستنياه، ومش مستنياه دلوقت خالص، لسه قدام.
بالمناسبة، «قدام» نهى أحبتها.

٢٠١٣

تجلس أمي بجواري وأنا منهمك في اللاشيء على اللابتوب، أسمعها تقول شيئًا لا أسمعه فأهز رأسي. استكملت محاورة شخص ما لا أعرفه في موضوع لا يهمني؛ فمن الأدب ألا أختتم الحوار فجأة. أنهيت معه ثم التفت إليها لأسألها عما تقول.
لم أجدها، دخلتْ غرفتها وأغلقت بابها عليها لتنام. ألحق بها وأمزح معها قليلًا ثم أسألها باهتمام:
- كنتِ بتقولي حاجة يا حبيبتي؟
- لأ مفيش، كنت بقول لك وحشتني.

٢٠١٣

أمي أمامي. فكيف لم أعد أراها؟

٢٠١٤

في الطائرة ونحن في طريق عودتنا من العمرة، أراها مبتسمة برضا وطمأنينة لفترة طويلة، ثم فجأة تلتفت لي قائلة: تعرف يا أحمد، عمري ما تمنيت حاجة من ربنا وماعملهاش ليَّ، ربنا على طول بيراضيني.

قصة فاطمة حزينة، لكن فاطمة مبهجة.

بابا سمير.. ممكن نتعرف؟

١٩٨٦

في البدء كان الماء مثلجًا.
وحده أبي يشرب من كوب الماء المثلج، أعتقد أنها ميزة له لأنه كبير، أشير للكوب بجواره بحماس طفولي قائلًا:
- بحب المية الساقعة، عايز زي بابا.
تنزعج أمي وتقول بضيق:
- ربنا ما يكتبها عليك يا ابني، ماتقولش كده.
ينهضان؛ أغافلهما وأشرب قليلًا، بارد بشكل مبالغ فيه، ولكنه ليس بهذا السوء الذي تتحدث عنه أمي.

١٩٨٧

جهاز معقد، أرى دماء والدي تمر خلاله ثم تعود إلى جسده ثانية، فيما بعد أفهم أنه جهاز غسيل كلى لإزالة الفضلات التي لم تعد الكلى قادرة على إزالتها كي لا تتراكم السموم في مجرى الدم.
دماؤه كانت أيام الأحد والثلاثاء والخميس تمرّ على الجهاز ثم تعود إليه، لا أعرف كيف أصيب بالفشل الكلوي، لكني أعرف الآن أن الماء المثلج كان كي لا يشرب كثيرًا لأن الكلى لا تعمل.

١٩٨٨

ومضات هي ما أذكر.
مقاطعته جريدة «الأهرام» عندما زاد سعرها من ١٥ إلى ٢٠ قرشًا، وقوفه في المطبخ يحمر لنا البطاطس وقد خلطها بالخل؛ مقلدًا منتج «شيبسي» الجديد في الأسواق آنذاك، ثم سبه لي لأني أرفض أن آكل منها. حقيبة الدواء البلاستيكية السوداء التي يناديني لأناولها له، إذاعة البي بي سي التي لا يسمع سواها، صراخ أمي شاكية من أني لا آكل؛ ورده عليها: «سيبيه، اللي ياكل على ضرسه ينفع نفسه»؛ والذي كنت أراه دفاعًا عني.
هذا ما أعرفه لكني لا أعرفه.

١٩٨٩

اختفى.
كان موجودًا ثم لم يعد كذلك؛ وقيل لتفسير ذلك إنه مات.
نزل أمامي محمولًا على نقالة إسعاف ولم يعد، طلبت أن أذهب معهم فرفضوا؛ لأنه لا يليق أن أراه في هذه الحالة، فلم أره بعدها في أي حالة.
يخبرني خالي أنه مات فارتميت على السرير أبكي، لم أفهم معنى مات ولكني افترضت أن التصرف الصحيح عندما يقال لي «بابا مات» هو البكاء.
عقب وفاته تقلصت أشياؤه من المنزل شيئًا فشيئًا، حتى لم يعد له أثر.
العملات القديمة ألقتها أمي لأني ألعب بها «جيوش» وهو ما سيضيع مستقبلي، مجلة «العربي» والكتب العلمية استبدلتها من باعة الكتب القديمة بروايات «ملف المستقبل» و«ما وراء الطبيعة»، مكتبته المتهالكة في الشرفة تحوّلت إلى دولاب أوانٍ، الجرائد القديمة التي كانت تزحم

الشقة تم بيعها بالكيلو، وأمي تخلصت من المطواة السويسرية لأنها كانت تخشى وجود سلاح في المنزل.
اختفى ثم اختفت أشياؤه.

١٩٩٦

أمي أصبحت عصبية تتوتر سريعًا والضغوط لم تعد محتملة، تقول لي:
- أبوكم عمره ما اشتكى من مرضه، وكان واثق من نفسه وصابر جدًّا، أما أنا مش قادرة عليكم.
بعد أيام من التحاقي بالصف الأول الثانوي أقول لها:
- ماما أنا عايز أوضة ليَّ.
- قلت لك مية مرة البيت مش فندق عشان كل واحد فيكم يبقى له أوضة؛ أنت وأخوك أوضة، والأوضة التانية اللي أنت بتقول عايزها دي حتفضل أنتريه للضيوف.
كنت مقتنعًا أنني أهم من الضيوف؛ لذا ففي اليوم التالي وفور نزول أخي إلى المدرسة وأمي للعمل؛ نقلت قِطَع الصالون إلى غرفتنا، ثم فككت سريري وأعدت تركيبه في الصالون.
استقللت بغرفة منفصلة كأمر واقع، أول يوم تشاجرتْ أمي معي، وفي اليوم الثاني صالحتها، وفي اليوم الثالث نسينا الأمر برمته.
فيما بعد قالت لي بلوم لطيف لا يحمل أي أثر لضيق:
- لو أبوك كان عايش ماكانش سابك تعمل كده.
ربما، لكني أعتقد أنه كان سيسامحني بابتسامة لطيفة كما سامحتِني.

٢٠١٠

أبحث عن صديق في كل رحلة، أبحث عن «ظهر» وسند في كل مكان.
حين توفي والد صديقي أرى أخاه يحتضنه بقوة في العزاء، لكن صديقي يفرد يديه ببرود دون أن يضمه، بعدها يلمح التساؤل في أعيننا فيقول لنا مفسرًا:
- عارف أنه حضن أي كلام، الواحد من بعد أبوه ما لوش حد.
بدا الاستغراب على وجه أصدقائي، لكني فهمت ما يعنيه.

٢٠١٤

عمرة لأبي.
في داخل زِيَّ الإحرام الأبيض الذي يشبه الكفن، أتحدث معه خلال الطواف، أشعر لحظتها أنني قريب منه.
أدعو له بالرحمة وأدعو لنا باللقاء على خير.
يتمثل أمامي موته؛ فأشعر أن كل الأشياء أصبحت صغيرة وما كنت أتصوره مشاكلي أصبح تافهًا.
كل الحزن أصبح بلا معنى، لمَ أبكِي على أشياء ذهبت إن كنت سأذهب؟

٢٠١٥

بابا.
أتأمل صورتي معك بعد مولدي عام ١٩٨١، كنت كبيرًا جدًّا بينما أنا داخل لفافة.
أحبك، حين رحلتَ كنتُ صغيرًا فلم تسنح لي فرصة للحديث معك أبدًا، لكننا قريبًا سنكون معًا.

في عالم آخر سأحكي لك أننا فزنا على الجزائر في مباراة العودة عقب وفاتك مباشرة، ووصلنا كأس العالم، لم نكررها ولكن المهم أن المباراة التي كنتَ تنتظرها فزنا فيها؛ حسام حسن هو مَن أحرز لنا هدف الفوز. آه صحيح، حسام انتهى الأمر به لاعبًا في الزمالك، هل تصدق؟
لدينا الوقت الكافي لأحدثك عن الإنترنت والكمبيوتر وفيسبوك والمحمول والفضائيات.
أريد أن أسمع منك، أن تروي لي حكاياتك عن أمي وزمنك وحياتك، قدر الإمكان سأحاول تجنب الحديث عن ولعك بعبد الناصر، أحبك ولا أريد استفزازك برأيي فيه.
سأتعرف عليك، سأعرف عنك أكثر من أنك «بابا اللي مات وأنا صغير».
كثيرون يحبونني ويروننني لطيفًا، أتمنى أن نكون أصدقاء.

عمر سمير.. واحد من أحباب الله

٢٠٠٧

لست متحمسا للإنجاب، تزوجت نهى لأنني أحب نهى فما علاقة الأمر بالأطفال؟ أرغب في السفر مع زوجتي وفي الخروج معها، في أشياء ليس لها أي علاقة بكائن يبكي لسبب غير مفهوم.
الأطفال أحباب الله، ليسوا أحبابي أنا؛ فلا علاقة لي بالأمر، لم أهتم بتأجيل الإنجاب ولم أهتم بالإنجاب مبكرًا.
للدقة لم أهتم.

٢٠٠٧

نعتصم في نقابة الصحفيين احتجاجًا على تأخر قبول أوراق عضويتنا، أسهر مع زملائي نناقش خطواتنا التصعيدية القادمة. يرن الهاتف فيأتيني صوتها يشع بالبهجة: أحمد أنا حامل.
ابتسمت وقد تسرب لي شعورها بالبهجة، أغلقت الهاتف بعد ما عرفت النبأ الذي يوصف بأنه «خبر سعيد» ثم عدت إلى زملائي وواصلنا مناقشتنا حول ردود الفعل على اعتصامنا، ونسيت الأمر.

٢٠٠٨

نهى سعيدة، تضع يدي على بطنها وتقول لي بفرحة:
- حاسس بابنك؟
لا أشعر بأي حركة من التي تتحدث عنها لكني أقول:
- الله، جميل قوي.
يبدو أدائي غير مقنع فتقول: بيتحرك يا أحمد؟
أضع يدي ثانية محاولًا بإخلاص الشعور بأي شيء دون جدوى، فأهز رأسي قائلًا: آه طبعا بيتحرك، طفل وبيتحرك.
نهى طوال فترة الحمل لم تتوقف عن الحديث عن جنينها ولم أتوقف عن هز رأسي.
وُلِد عمر: شعور غريب عندما حملته لأول مرة، خفيف الوزن وبريء وضعيف. ذهبت به إلى التطعيم في اليوم الأول لمولده، صرخة ألم مع دخول الإبرة لقدمَيه فأشعر أنني مسئول ألا يتألم، أحس بضيق لأنني لم أستطع حمايته.
أحتضنه بحب فينظر إليَّ للحظة ثم يسكت. اكتشفت أنني يمكنني أن أقدم له شيئًا.

٢٠١٠

لا زلت مندهشًا من هذا الكائن المدهش الجالس معي في المنزل، أنظر إليه باستغراب وهو نائم: متى جاء؟ أين كان؟ لماذا يشبهني سواء في الشكل أو حركات يديه؟
أبتسم عندما يتهرب من تناول الطعام أو من الذهاب للحضانة، مازلت مقتنعًا بأنني أنا الطفل الصغير الذي يتهرب من تناول الطعام، دور الأب العاقل يبدو لي غريبًا.
مع كل كلمة جديدة وابتسامة جديدة أحبه، أحبته أمه قبل أن تراه بينما أحببته لأنني رأيته.

٢٠١١

عمر يعرف أن «بابا بينزل في الثورة» و«بابا رايح الثورة». نرى أغنية تستعرض صور شهداء يناير فيجري على والدته قائلا:
- «ماما ماما ،الناس اللي ماتوا اللي بتعيطي أما تشوفيهم».
تحتضنه بحنان، يبدو أنه التقط أشياء مما يسمعه. بعد أيام ألاحظ غيابه عن غرفتنا، أبحث عنه فأجده يقف في المطبخ وحيدًا يبحث عن شيء ما.
- عايز إيه من هنا يا عمر؟
- سِكينة.
- نعم؟
- سِكينة.
- ليه يا حبيبي؟
- عشان أدافع عنكم أما البوليس ييجي يقتلنا.
بعد أسابيع لم يعد يتكلم عن السكين والقتلى، أتأمله وهو يلعب، أعلم أنه لم يعد يتكلم لكني لا أعلم هل نسي؟

٢٠١١

يبدو وحيدًا أثناء رحلتنا للمعمورة بالإسكندرية. في الحديقة أمام الشاليه يلتقي بمجموعة أطفال فيقترب منهم ويقول لهم ببراءة: أنا عمر.
كانوا يلعبون لعبة جماعية، فأشركوه فيها فورًا. ينهي اليوم سعيدًا وفي اليوم التالي يطالبني بالنزول ليلعب مع أصدقائه الجدد، يصل إليهم فيقول: أنا عمر.
كان كل واحد منهم يلعب وحده، ينظرون له بعدم اهتمام ويواصلون اللعب، لا يذكرونه ومَن يذكره لا يهتم. يبدو مصدومًا ويصرخ فيهم بعصبية: أنا عمر بتاع امبارح.
يواصلون عدم الاهتمام كأن شيئًا لم يكن، فيعود لنا مسرعًا وعيناه تلمعان بدموع وهو يردد: قلت «لهم أنا عمر بتاع امبارح، عمر بتاع امبارح».

٢٠١١

تنشغل والدته على الإنترنت لدقائق، يكلمها فلا تسمعه فيصرخ:
- أنتِ بقيتي زي بابا أكلمك ومابتسمعينيش.
تنظر إليَّ بلوم نظرة معناها «جبت لنا الكلام يا فالح»، فيضحك بخبث طفولي محبب، قبل أن يغادر الغرفة محرجًا من ابتسامتي.
بعدها بأيام يزورنا أقاربنا وأولادهم وحين ينوون المغادرة ينهمر بالبكاء بينما لا يبدو على أولاد أقاربنا التأثر لتركه رغم أنهم يحبونه.
فور مغادرتهم يقترب مني ويقول بحسم: عايز يبقى عندي «أخو».
أنظر إليه طويلًا فيكرر بإصرار طفولي: عايز يبقى عندي «أخو».
قبل أن يطلب كنت أميل لإنجاب طفل واحد، كنت.

٢٠١٢

جاءت مريم. عمر يهوى أن يستفز أخته دون مبرر ويوقظها من النوم دون سبب.

ابني يقفز عليك فجأة لسبب غيبي غير مفهوم ويرفض السلام على أي شخص لا يعرفه، يرتكب الأخطاء نفسها ثم يبررها ببساطة: «ماكنش قصدي».
أحبه رغم هذا أو بسبب كل هذا، لا أعرف بالضبط.
أسأله مرة: مبسوط إن مريم معاك؟
- آه قبلها كنت بزهق، دلوقت مبسوط.
قال إنه «مبسوط». هذا يكفيني.

٢٠١٥

اعتاد عمر أن يسير ورائي وأنا أفكر، كلما حادثت نفسي كعادتي قبل الكتابة مناقشًا الفكرة، أجده يقلد حركاتي وهو يضحك.
أنظر إليه مرة بعتاب فيقول ببراءة وقد أزعجه توقفي: كلِّم الهوا تاني يا بابا.
كان واضحًا «كلِّم الهوا تاني»، أي هراء أردده لتعزية نفسي عن أنني عبقري أخاطب نفسي للوصول لأفكار أكثر وضوحًا لن يكون له قيمة أمام هذه الصراحة الطفولية.
نمر بالسيارة في ميدان التحرير فيبدو مندهشًا من الميدان الذي لم يره سوى في المسيرات فيسألني: فين الناس يا بابا؟
- مشيوا.
قبل أن «يمشوا» كنت أتصور أنني سأترك لعمر وطنًا يعيش فيه البشر أحرارًا، وحالهم أفضل اقتصاديًّا، لكنني أدركت أنها كانت مجرد معركة عربية أخرى على شيء هلامي اسمه إسلامية وعلمانية.
بعد الثورة أجلس مع والدتي فتقول لعمر جملتي المأثورة: كل الناس طيبين ولو عاملناهم كويس وضحكنا في وشهم حيعاملونا كويس ويحبونا، بابا بيقول كده دايمًا.
الحقيقة أنني خلال أربعة أعوام لم أرَ سوى كتل كراهية وتكفير وتخوين واتهامات بالعداء للإسلام، لم أعد أثق مطلقًا في صحة المقولة أو جدواها.
لا أعقب فيسألني: هوَّ كل الناس طيبين يا بابا؟
لا أرد؛ فلم أعد أملك إجابة.
مازال عمر يسير ورائي، المشكلة أنني الآن لم أعد متأكدًا من أنّ هذا هو الاختيار الصحيح.

مريم سمير.. لأن الأشياء الرائعة وجدت كي تحدث لي

١٩٩٢

أحب مدرس العربي، لطيف ويحكي لنا قصصًا مسلية، يقول لنا:

- اليهود أما دخلوا القدس سنة ٦٧، قعدوا يهتفوا «محمد مات خلف بنات، محمد مات خلف بنات» عشان يشتمونا.

لا أعرف كيف يجيد الإسرائيليون اللغة العربية إلى درجة اختيار هتافات بها سجع، ولكن القصة لحظتها بدت لي درامية عن هزيمة وشماتة.

يقفز سؤالٌ إلى ذهني فأقف بسرعة وأنا أرفع يدي تجاه المدرس وجسدي كله يميل على الدكة؛ هاتفًا: يا أستاذ، يا أستاذ.

لا أنتظر منه ردًّا كأي تلميذ نموذجي في الإعدادي وأسأله مباشرة:

- فين الشتيمة؟

- ما يا ابني قعدوا يقولوا عليه صلوات الله عليه وسلم مات وخِلفته بنات.

- مات وعنده بنات. فين الشتيمة؟

كل الناس تموت والكثير منهم ينجب البنات، لكن المدرس بدا ضجرًا من عدم فهمي للاستهزاء الواضح في الهتافات.

كعادتي، لم أشترك في جدال حول ما لا أفهمه، أملًا في أنني يومًا ما سأكبر وأفهم «فين الشتيمة؟».

٢٠٠٠

في منزل جارنا العجوز أرى أولاده الرجال يزورونه أسبوعيًّا، يديرون معه حوارًا مقتضبًا يمكن اختصاره في «وأنت صحتك أخبارها إيه النهارده يا حاج؟ الحمد لله يا ابني» قبل منحه المال والرحيل.

أما بناته فيزرنه يوميًّا، يهتممن بأدق تفاصيله ويمنحنه حنانًا نقيًّا. يقول لي:

- أما بروح لواحدة من بناتي ببقى قاعد عندها هي، آه الاسم إنه بيت جوزها لكن هي اللي بتراعيني. التاني الاسم أنه بيت ابني لكن في الآخر بكون ضيف عند مراته، مراتاتهم محترمين وبيحبوني وكل حاجة بس في الآخر ضيف.

يومًا بعد يوم تبلور لديَّ حب الأطفال البنات، الأولاد يتقافزون فوق كتفك بسخافة، أما البنات فرقتهن لطيفة.

أريد بنتًا. في بداية زواجي أعبر لوالدة زوجتي عن أمنيتي فتقول لي بيقين:

- من ورا قلبك طبعًا، أنت من جواك نفسك في ولد.

٢٠١٢

بنت. وإني سميتها مريم. في اليوم الأول لميلاد مريم تحتضن قريبتنا الطفلة الوليدة، تبكي الصغيرة فتضمها قريبتنا بحب قبل أن تقول لها بجدية ممتزجة بالسخرية:

- يعني بنت، وليكي عين تعيطي كمان.

٢٠١٣

أراها تكبر.

هي الآن تزحف منذ فترة، أعتقد أنها تستطيع السير ولكنها لم تكتشف بعد.
أُمسك بيدها فتتحرك معي بأمان، أتخلى عن يدها فتنظر لي بدهشة للحظة قبل أن تحاول إسناد نفسها، تكاد تهوي لكني أحتضنها سريعًا فتضحك بشدة على ما تتصوره لعبة، نكرر وفي كل مرة تعلو ضحكتها عندما تكتشف أنه بإمكانها الثبات على قدميها لفترة أطول أو السير لخطوات.
بعد أيام من التجارب أراها تسير وحدها، أنظر لها بفخر وهي تتنقل مستندة على الأثاث سعيدة بالاكتشاف الجديد دون أن تدري بوجودي.

٢٠١٤

- بابا، «مامي» عايزة أعمل كده.
«مامي»، هو الاسم الذي قرّرت مريم أن تنادي به نفسها لعدم قدرتها على نطق حرف الراء في «مريوم» التي كنت أناديها به، كانت تشير بالحركة التي يتعلمها عمر في تدريب السباحة للطفو على الماء للمبتدئين ويسميها مدربه «سوبر مان»، فتوضح لي نهى زوجتي:
- من ساعة ما رجعنا من النادي مستنياك ومنامتش لدلوقت عشان تقول لك.
- حاضر حبيبتي، السنة اللي بعد الجاية حوديكِ إن شاء الله.
كنت أتحدث جادًّا عما أنتويه، فالمدرب نصحني بـأن تبدأ التدريب في سن الرابعة، توقعت أن تُصدم من إجابتي لكني وجدتها تجري بفرحة وتصرخ وهي تدخل سريرها لتنام:
- هييه، بابا وديني أعمل كده سنة جاية.

٢٠١٤

كائن صغير يسير في المنزل، أدخل البيت فتبتسم، ألعب معها فتبتسم.
تبتسم، إذن هي رائعة.
أضم مريم لحضني فتضمني وتسكن لي. الولد يتقافز سريعًا من الملل.
أمام المرايا تقف لتجرب كل تعبيرات الوجه، ثم تقول لنفسها: «مامي إحشة» أي مريم سيئة، تتجهم للخبر قبل أن تعيد تشكيل ملامحها ثانية، وترد على نفسها قائلة: «مامي أميلة» أي مريم جميلة، ثم تفرح جدًّا.
أحبها لأنها ابنتي، والأرجح أنني أحبها لأنها لطيفة.

٢٠١٤

- بابا جه، بابا جه.
بهذا النداء الذي عمَّمتْه جهة ما على أطفال البشرية، تهتف مريم فور دخولي للمنزل، تلحظ كيسًا في يدي؛ فتتوقف عن الهتاف وتجري على الكيس لتتناول «كورن فليكس» ملونًا تحبه، ثم تفتحه بسرعة قائلة: بتاعت مامي.
يبكي عمر لأنه يحب النوع نفسه الذي انتزعَته، رغم فارق السن لا يستخدم العنف معها إلا نادرًا، تنظر إليه بإشفاق لحظة، ثم تهزّ رأسها بإصرار طفولي وقد قررت أن تواصل.
أعتقد الآن أن أسطورة أن الخير بداخلنا والعالم يلوثنا مجرد أكذوبة، للدّقة الأنانية بداخلنا ونحاول أن نهذب أنفسنا، أقول لها:
- إديه نص الكيس يا مريم.

تزوم وتمط شفتيها بضيق، أحاول إقناعها باقتسام مع أخيها ما يحبه، لأنه أمر سيئ أن تترك إنسانًا حزينًا، لا يبدو عليها الاقتناع لكنها تمد يدها نحوه بالكيس قائلة من بين أسنانها:
- فضَّل (أي تفضل) عمر، فضَّل.

٢٠١٤

- بابا بابا، عمر إضرب «مامي» كده كده.
تشوط الأرض بقدميها في إشارة إلى أنه ضربها (كده) بقدمه، أناديه وأحرك يدي تجاه كفه بشكل تمثيلي كأني أضربه، يدَّعي عمر البكاء لإرضائها فتلتفت لي بغضب قائلة:
- بابا إضرب عمر ليه؟

٢٠١٤

خلال لعبها تدفع مريم بعصا دون قصد فتسقط على وجه أمها، تتألم نهى للحظات فتحتضنها مريم بحب، بعدما نطمئن على نهى أبتسم وأسأل مريم:
- مين اللي خبط ماما؟
تضيق ملامحها كأنه لم يعجبها السؤال، قبل أن تنظر إلى العصا وتقول لي:
- صايا.
- عارف يا مريم إن العصايا وقعت، مين بقى اللي وقع العصايا فخبط ماما.
تشير إلى والدتها وتسأل مدعية عدم الفهم:
- ماما دي؟
-- أيوه ماما دي.
تسكت كأن الحوار انتهى فجأة وتتشاغل بلعبتها فأسألها:
- طيب إنتِ اسمك إيه؟
تنظر إليَّ بطرف عينيها وقد فهمتْ أني أريد الإيقاع بها، تواصل اللعب قبل أن تقول لي كأنها لم تسمع شيئًا:
- تلعب معايا؟
تلحظ أنني مازلت أنظر إليها منتظرًا ردًّا فتبتسم ابتسامة كبيرة مفتعَلة ثم تُقبلني وتجري.

٢٠١٥

أنام بجوارها فتحتضنني بحب، تغمض عينيها لحظة بحركة تمثيلية كأنها نامت. تمر ثوانٍ قبل أن تفتح عينيها ثانية فتجدني مازلت نائمًا بجانبها فتقول لي:
- امشي بقى، مع سلامة.

٢٠١٥

كبرت، وعلمت أن محمد مات وخلف بنات فعلًا، فكل ذريته صلى الله عليه وسلم من نسل فاطمة.
عزيزي مدرس العربي مازلت أحبك، ولكني أحب أيضًا إبلاغك أنني متيقن الآن أن «خِلفة البنات» ليست شتيمة.

الباب الثاني:

ما بعد الهايكستب

(ممنوع الاقتراب أو التصوير أو الفهم)

ما بعد الهايكستب (الموسم الأول)

هذا هو المكان الأمثل لتقضي أتعس أيام العمر، قيل لي إنني سأعيش هنا سنة و٤٥ يومًا، وسط رمال صفراء وملل لا ينتهي.

مرة رأيت ثعلبًا، ومرة رأيت عقربًا، وسمعتهم كثيرًا يتحدثون عن ثعبان الطريشة، لكن لم أرَ أي كائن مزعج سوى البشر.

نمت وحيدا في العراء دون خيمة أصلًا مطمئنا، ربما لأنني كنت وحيدا، ففي عالم مَن يحملون بنادق لا تطلق رصاصة، أنت فقط تلتقي ببشر.

(١) جندي مجند إسلام

ندخل معًا الكتيبة؛ يبدو منهارًا من الحياة العسكرية، يميل على مجموعتنا ليصادقنا فكلنا مثله مؤهلات عليا.

الانطباع الأول عن إسلام خريج الجامعة الأجنبية أنه ودود ومتعاون، لكن ابن حي الزمالك تحول إلى «عسكري كَحُول» يتقاضى حينها ٦٥ جنيهًا شهريًّا ويأكل «الجراية».

أسمع أنه سيكون عسكري أمن فأفرح له، لطيف أن يكون في مركز قوة نسبيًّا؛ فالولد كان على مشارف انهيار عصبي. فيما بعد تردد حول إسلام كلام سلبي لم أهتم بتفاصيله لكنني أفهم أنّ الشكاوى تزداد من أدائه، حتى يأتيني صديقي الأقرب ويقول لي:

- صاحبك اللي أنت جاي معاه.

- ماله؟

- لا مفيش، ابن ستين كلب بس.

سهرات إسلام معنا قلَّت حتى انعدمت. التقيته عند البوابة فمازحته بشكل طبيعي فبدا متحفظًا قبل أن يحدثني على انفراد ويقول لي:

- غلط إننا نتعامل على أساس إننا أصحاب، بقية العساكر كده حياخدوا عليَّ، لو ده حصل مش حعرف أحكمهم هنا.

في آخر ثلاثة أشهر له في الخدمة أطيح به من الأمن. قيل إن زملاءه في الأمن ضاقوا مما أسموه «الزَّر فيهم» وتقربه لضابط الأمن بإبلاغه عن تقصيرهم فتآمروا لتوريطه.

إسلام خلع الزي المميز لفرد الأمن وأصبح لا يسمع سوى عبارات التشفي والسخرية. عاد ليكرر زيارته للسهر معنا متجاهلًا معاملتنا الجافة.

يقول لي: أنا عارف إني عيل سافل.

أبتسم ببساطة وأقول له: كلنا عارفين ده يا إسلام.

- أنت ماتعرفش حاجة يا أحمد، مش حقدر أشرح لك. لازم تبقى في المكان ده وتحس إنك مسيطر: تقدر تنزل ده أجازة وتحجز ده وتمسك على ده حاجات وتسجن ده، قوة بنت كلب. صدقني لو كنت مكاني حتعمل نفس العمايل.

يسكت قليلًا ثم يقول لي بعزم: عارف؟ مش أنا مفشوخ من العيال دلوقت، لكن لو رجعت حفشخهم تاني بنفس الطريقة. ده سحر يا أحمد، سحر.

(٢) الصول محمد

بالغ الطول، صوته أجش، شاربه ضخم، ملامحه متجهمة.

الصول محمد يصرخ دومًا، يتحرك بخفة لا تتناسب مع حجمه ويتعمد مفاجأة العساكر بصوته الجهوري ونهرهم لأي شبهة خطأ.
بدا مرعبًا لزملائي لكنني كلما رأيته كنت أبتسم، بدا واضحًا للجميع أنني أكتم ضحكة كلما سمعت صوته. هذا الرجل يبذل مجهودًا ضخمًا ليبدو مشوهًا ومرعبًا، بدا لي الأمر فكاهيًّا ومثيرًا للرثاء.
كان يصنّف من صف الضباط المؤذيين إلا أنه كان يتحاشى التعامل معي؛ فيبدو أن ابتسامتي التي تجمع بين الاستهزاء والشفقة والاستفزاز والبرود والسماجة كانت غير مريحة له.
الصول محمد إسكندراني ويقال إن دمه خفيف، وهو من صف الضباط القلائل الذين يمزحون مع العساكر بسبهم بشتائم مدنية على سبيل التبسط رغم مخالفة هذا للقواعد.
نسهر معًا في الخدمة، يناديني لا لشيء -غالبًا- إلا لأنه لم يجد غيري ويحكي لي بدون مبرر عن مشاكله مع زوجته، ثم يقول:
- كل شهر ولَّا شهرين أضربها علقة متينة، تتعدل شوية وترجع تتعوج تاني، فأرقعها العلقة اللي بعدها.
- مش رجولة إنك تضربها.
قلتها ببساطة باعتبار أنها قاعدة لا تقبل الجدل دون أن أقصد حقًّا استفزازه، فتغيرت ملامح وجهه فجأة وبشكل مضحك من بساطة الحكي إلى انزعاج الصدمة.
نظر إليَّ لحظة بدهشة كأنما شعر بالخيانة ثم صرخ بصوت عالٍ لا يليق مع أنني أقف أمامه أصلًا:
- انتباه يا عسكري.
ثم واصل: يعني أنا أقول لك إني بضربها تقول لي مش رجولة، أمال إيه الرجولة ياد أنت؟ إني أسيبها على حل شعرها.
- مش رجولة برضه إنك تشتم مراتك وتقول عليها إنها بتمشي على حل شعرها، مش رجولة وربنا، أضحك عليك يعني؟
- الحق عليَّ إني بكلم عسكري، غور ياد أنت.
أغلب مَن تعامل مع الصول محمد قال لي إن سبابه وعنفه وأذاه وراءهم ما أسموه «قلب طيب»، لكنني كنت -ببساطة شديدة- أحتقره.

(٣) جندي مجند علي

- آه، أنا خدت الموبايل.
هكذا يقول لي «علي» ونحن وحدنا خلال الخدمة. كانت هذه أول مرة أسمعه يتكلم بوضوح، لشهرين كان يتكلم «من جوه» بغمغمات غير مفهومة مجرد استجابة آلية للأوامر والتعليمات.
عندما التحقت بالقوة الأساسية كان علي مركز قوة مهمًّا، فقد كان منذ ما يزيد عن سنة ونصف السنة، عسكري مراسلة (سيكا) لقائد الكتيبة.
لكننا فجأة رأيناه وقد نُزع منه «الآيش» (الحزام الميري) و«بيدور مكتب» استعدادًا للزج به فى السجن، ما فهمناه أن علي سرق محمول سيادة الرائد قائد الكتيبة لكن لا أحد فهم لماذا. كان تقديري لقيمة الموبايل أنه لا يزيد عن ٥٠٠ جنيه، وحتى بمقاييس تلك الفترة لم يكن الرقم كبيرًا.

في البداية كان علي يحظى بتعاطف واسع باعتباره فقيرًا سرق لأنه محتاج، لكن صديقه المقرب فجّر المفاجأة: المحمول سُرق من شهر كامل وعلي نزل إجازتين وفي كل مرة يعود به.
هنا تحول علي لأضحوكة؛ فبالإمكان التسامح مع السرقة لا مع الغباء.
بعدما خرج من السجن أصبح منبوذًا. كان غباؤه مثار دهشة واحتقار جماعي؛ أخذ المحمول وعاد به لمرتين.
كعادتي مع الروايات الرسمية لم أصدق ولم أكذّب الواقعة، فلم أتيقن من أنه سرق أساسا إلا عندما أخبرني بنفسه.
يقول لي: تعرف ليه سرقته؟
أنظر إليه بفضول فيواصل: مش عارف، بس حسيت ساعتها إني المفروض أسرقه. بصراحة، كان شكله حلو.
تردد في الكتيبة أنه أراد الخروج به مع صديقته، فاضطر للعودة به لأنها اعتادت أن تقابله فور نزوله للإجازة.
حتى الآن لا أعرف مدى دقة هذه الرواية، لكنني أعرف تمامًا أن المحمول كان «شكله حلو».

(٤) جندي مجند عبد الله

عبد الله عسكري أمن؛ وهو ما يعني أن عبد الله كان مكروهًا.
أراه لأول مرة فيتقدم نحوي ليصافحني، أنهض لأصافحه ببراءة لكنني أجد صديقًا لي ينسحب خطوة للخلف ليكون في ظهره بشكل مريب.
تلتقي يدانا لنتصافح بينما أرى صديقي من ورائه يضم ساعديه ويشير براحتَي يديه بانسيابية بحركة طائر للدلالة على أن مَن أصافحه «عصفورة». فور رحيل عبد الله يقول لي صديقي:
- الحيطان هنا هي الودان ذات نفسها.
معاملة عبد الله كانت ودودة، لكن تحول إلى أسطورة شر عندما أبلغ عن ابن خالته «سلامة» أنه ينوي الهروب والمبيت بالخارج ثم العودة صباحًا.
سلامة دخل السجن فيقول لنا عبد الله مبرّرا موقفه:
- قريبي بلدياتي أما يهرب ده في وشي، حيتقال إني أكيد عارف ودايرت عليه، كنت أنا اللي حتئذي فيها. نصيحتي لك يا أحمد: ساعة الكبسة سلم اللي تلاقيه في وشك تسليم أهالي.
رغم حرصه ونصائحه إلا أن نهاية عبد الله كانت مريعة عندما رفض السماح لجندي حراسة البوابة باستقبال عسكري ليس من كتيبتنا أصيب في حادثة على الطريق كي لا يتحمل مسئوليته.
فسر لي ما فعله قائلًا:
- هنا مفيش حاجة اسمها قلب يا صاحبي.
بدا لي صادقًا أو على الأقل هو مقتنع أنه صادق. لكن ظهر له أن «هنا فيه حاجة اسمها قلب» عندما علمت قيادة ما بالواقعة فحولته للمحاكمة ودخل السجن لفترة هائلة و«فَقَد دُفعة»؛ أي تأخر انتهاء تجنيده ستة أشهر كاملة.
أعتقد الآن أنه لولا واقعة عبد الله مع ابن خالته لما تصاعد الأمر لينتهي به إلى السجن، فسجن قريبه خلق كراهية عامة له وتربصًا جماعيًّا به. الأمر أشبه بحَكَم احتسب ضربة جزاء لفريق ثم قرر أن العدل احتساب ضربة جزاء للمنافس.

أنهيت خدمتي وتركت عبد الله وسلامة في السجن ولم أعلم منذ ذلك اليوم شيئًا عنهما.

(٥) الرائد مجاهد

الضابط مجاهد كان قائد الكتيبة وكان محبوبًا. فور التحاقي بالكتيبة سمعت الكثير من الشكر في شخصه؛ فهو دمث الخلق، ودود، غير متكلف.

باختصار كان رائعًا، وكنت أكرهه.

يسأل مجاهد أمامي أحد ضباطه لماذا يكلف العساكر بجمع الزلط من الأرض رغم عدم جدوى العمل سوى إرهاق الجنود فيقول له الضابط:

- العسكري أما بيرتاح بيفكر، وأما بيفكر بيقرفنا.

لم يعلق مجاهد وهز رأسه متعجبًا. يبدو لي مفكرًا متأملًا وأعتقد أن رد فعل نجيب محفوظ لم يكن ليختلف عما فعله مجاهد إن سمع كلامًا مماثلًا، سيهز رأسه ويكتبها في إحدى قصصه.

قائد الكتيبة لم يؤذِ أحدًا ولم يتدخل لمنع الأذى؛ لذا فغالبية زملائي يرونه شفافًا نقيًّا، وكنت أراه شفافًا لا جدوى من وجوده أصلًا.

أعتقد أن الرائد مجاهد ينام مرتاحًا لأنه لم يظلم أحدًا بنفسه أبدًا، مشكلتي معه أنه وحده في الكتيبة مَن ينام مرتاح البال.

ما بعد الهايكستب (الموسم الثاني)

«أنتم لبستوا معانا هنا»؛ هكذا قيل لنا في أول ليلة نقضيها في الصحراء. موحٍ جدًّا أن تكون هذا العبارة هي أول ما نسمعه. يقف صف الضابط أمام جموع الجنود المنضمين حديثا ويسلمنا حفنة ملابس، ويصر أن الملابس اسمها «مُهمَّات»، قبل أن يصرخ فينا بحماس مبالغ فيه قائلا:

- مُهماتك، شرفك، فلوسك، ده اللي لك هنا.

ثم يشير إلى شيء لم يوفقه الله ليُكمل مسيرته نحو أن يكون حقيبة ويقول:

- دي اسمها المِخْلَة.

ويضيف: الحزام الميري اسمه آيش، المطعم اسمه ميز، دُفعة دي بيقولوها لنا بره، هنا مفيش حد اسمه دفعة، زميلك تقول له بِيلدي يعني بلدياتي.

ويشير نحوي قائلا بضيق: وأنا مش أمين شرطة زي ما البيه ما كان فاكرني، اسمي صف ظابط.

عرفنا كل شيء. ماذا نريد أكثر من هذا لنعيش في هذا المكان؟

(١) جندي مجند عصام

عصام عسكري عادة بدون مؤهل، ويكرهني. في أول أيامي بالكتيبة ألتقي به فيقول لي:

- أنت داخل دلوقت وأنا بقالي سنة ونص، وأنت حتخرج وأنا لسه حيبقالي ست أشهر.

عصام متضرر من أني «عسكري عُليا»، يزعجه أنني سأخرج قبله ويزعجه أكثر نزول أغلب عساكر العُليا إجازات بالواسطة بينما هو لا يفعل، ويكرهني. زميلي لم يقصر في التعبير عن مشاعره تجاهي لكنه لم يحولها يوما إلى أي أفعال مؤذية، يكتفي بتأنيبي حين أنزل إجازة بأن يهتف ساخرا:

- واسطة والعِيشة مرتاحة يا أسطى.

نجلس في مجموعة كبيرة ونتحدث عن معاناتنا، فيتجاهل كل مَن تكلم ويعقب على كلامي بحدة قائلا:

- إحمد ربنا إنك هنا، غيرك مرمي على الحدود.

رغم تذمره مما نعيشه إلا أن عصام يقدس الأقدمية، ربما لأنه لم يكن له سواها ليقدسها، يقول لي:

- طبعا فيه حاجة اسمها أقدمية، أنت حتساوي نفسك يا ابن إمبارح بعسكري زيي متكَحْرَت هنا من سنتين.

كان لديَّ شعور بالذنب تجاه عصام. حاولت أن أساعده في مواقف مختلفة فلم يزده ذلك لي إلا انزعاجا من ودٍّ يراه غير مبرَّر، وربما لم تنكسر حدة العداء إلا عندما قاتلت كي أقف بدلا منه في الخدمة حين كان مريضا بشدة. يوم إنهائي لخدمتي ودَّعني، لمحت في عينيه نظرة كراهية اعتدتها ولكنها لأول مرة لم تكن موجهة لي. هذا يكفيني.

(٢) جندي مجند محمد عبد الله

في أيامي الأولى بمركز التدريب ألتقي بمحمد عبد الله، أراه يجمع زلطًا فيطلب مني أن أساعده قائلا:

- اختار الخفيف والصغير.

أجمع معه ونحن نتبادل الحديث دون أن أهتم بسؤاله عن تفسير، فيما بعد كشف لي عن سره، يفتح خزانة ملابسه ويخرج منها كيسَين. أتأملهما بعدم فهم فيقول لي:

- ٣٦٥ يوم بـ ٣٦٥ زلطة، واليوم اللي بيروح مابيجيش غيره. الكيسان كان أحدهما صغيرًا جدًّا بعدد الأيام القليلة التي قضيناها في مركز التدريب، والثاني كبيرًا بعدد الأيام التي تنتظرنا. أراه ليلا وحده ينقل حجرًا صغيرًا من الكيس الأول إلى الثاني، ولأول مرة منذ التحاقنا بمركز التدريب أرى على شفتيه ابتسامة صافية. بعد أيام أجد بيده حجرًا إضافيًّا، يبتسم بمرارة ويقول لي مفسرا:
- السنة دى طلعت كبيسة؛ فبراير ٢٩ يوم.
في نهاية مركز التدريب أمر بجواره فيمسك بالكيس المحبب ويقول لي بسعادة طفولية:
- بدأ يتقل على فكرة.

(٣) جندي مجند عبد الحميد

- مرة واحدة نمت مع بنت، كنت في ثانوي وأول ما خلصت معاها ضربتها قلمين على طول.
- ليه يا عبد الحميد؟
- ما هي (قال كلمة تعني عاهرة)، أروَّحها يعني من غير ما أضربها وأسيبها تفضل كده؟
كان هذا الحوار أول ما دار بيني وبين عبد الحميد. فيما بعد أصبح عبد الحميد معي في خيمة واحدة خلال عمل تدريبي. المياه كانت قليلة لكن خيمتنا التي تجاور خِيَم الضباط كانوا يستغلونها لتخزين «جراكن» المياه. كان لدينا مخزون مياه كبير وربما أكبر مما لدى الضباط أنفسهم فاعتدت مع زميلنا الثالث في الخيمة أن نُخرج المياه بأي كمية لمن يطلبها للاستحمام أو لأي سبب مقابل وعد شفهي بأن يعيدها ثانية حين تأتي سيارة المياه، لكن عبد الحميد كان يرفض بتشنج قائلا:
- ما يروحوا يقفوا في طابور يجيبوا لنفسهم جراكن تكفيهم، أو عنهم ما استحموا مش حيموتوا لو استنوا يوم. لو الظابط عرف حيفشخنا.
يحاول صديقي أن يكسبه لصفنا فيقول له:
- إحنا في كام يوم حيخلصوا حيخلصوا، لكن العيال دول أنا وأنت وأحمد قاعدين وشنا في وشهم، ركِّبهم جمايل على الأقل. لم يرد، وفي اليوم التالي كان عبد الحميد يوزع بنفسه المياه ولم ينسَ أن يخاطبنا قائلا:
- ما تطلَّعوا المية يا رجالة، أنتم عايزين تكنزوها هنا ولا إيه؟
لم أنزعج ولكني حتى الآن لم أفهم.

(٤) جندي مجند عبد الرحمن

عبد الرحمن دوما متأفف، وخلال ذكرى مولده الـ ٢٥ سماه أحد العساكر «وحيد الربع قرن». تتغير الأسباب لكن الثابت أن عبد الرحمن متأفف؛ ضيقه دائم وشكواه لا تنتهي وملامحه عابثة. في البداية أحاول التخفيف عنه لكني أكتشف أن أي مواساة يستميت في تفنديها لإثبات أن الأمور تسير دوما للأسوأ. يقول لي:
- عارف ليه جنودنا كانوا بيسجدوا أما وصلوا سينا؟ أنت طبعا فاكر إنه عشان انتصرنا والجو ده، لا، لا، عشان ده معناه إنهم حيخلصوا تجنيدهم.
عبد الرحمن فكر كثيرا في الهروب من الوحدة، وللدقة هو حاول مرة لكنه تراجع خوفا قبل أن ينكشف أمره. ولأن طاقتي الإيجابية السخيفة لا تفتر، أقول له يوم إنهائنا الخدمة:
- خرجنا يا عبد الرحمن، خرجنا.

قلتها على سبيل الاستفزاز فقد كنت أريد التأكد من شيء ما؛ لذا لم يفاجئني عندما قال:
- وتفتكر بره في إيه كويس يا أحمد؟ كله محصل بعضه.

(٥) جندي مجند حسام

في أيامه الأولى بالقوة الأساسية يبدو الشابَّ الريفي المتدين الأكثر حماسًا؛ يُحدّثنا عن رغبته في تعلم إطلاق الرصاص؛ لأن أمنيته الجهاد في سبيل الله. يستمع له زميلنا العسكري القديم بإنصات ثم يلتفت نحوي ويقول بجدّية:
- الواد ده باينه عبيط.
حسام حاصل على مؤهل متوسط، ويبادر بشكل استثنائي لتعريف نفسه للضباط والصف للقيام بأي مهمة. حاول إثبات نفسه كأي موظف مجتهد في بداية تعيينه في شركة.
عمله بضمير جعله العسكري المستجد الأشهر. كنا ننتهي من نظافة شارع معين بالكتيبة فنختفي، بينما يذهب هو للصول ليبلّغه بإنهائه المهمة فيكلفونه بأخرى.
بدا حسام مندهشًا من طبيعة المهام التي يكلّف بها، أغلبها أعمال نظافة وليست أعمالًا قتالية كما كان يتوقع، فيقول له زميلنا القديم:
- المقشة سلاحك والجاروف ذخيرتك والزبالة هي العدو، فتعامل.
بمرور الأشهر بدأ حماس حسام يفتر، لكنه كان قد خالف بالفعل النصيحة الأشهر في الجيش وهي: «احرص ألا يعرفك أحد لا بالخير ولا بالشر»، فارتكب الخطأ الأعظم بأن أصبح معروفًا بالنشاط.
استمر حسام في العمل حتى تطور دوره ليكون مساعدا للضباط في تكليف زملائه بأعمال أغلبها كان يخترعها بنفسه لزوم«التشغيل».
في أواخر أيامه في الكتيبة كان أكثر ما يحزنه إبلاغه بخبر أن أحد أصدقائه أو أقاربه في البلد حصل على «تأجيل» من التجنيد، أما أكثر أيام انتشائه فكانت حين التحاق المستجدين بالكتيبة، حيث كان يتعمّد توريطهم في أعمال عبثية. كنت أخلصهم منه بطريقة أو بأخرى؛ حتى لحق بي مرة واستوقفني وهو يقول بعصبية لا تتلاءم وطبيعته الهادئة:
- واشمعنى أنا كنت بعمل كده؟
عندما أصبح حسام «عسكري رديف» يوشك تجنيده على الانتهاء تحوّلت متعته إلى أن يقول لكل مَن يراه من المستجدين:
- فكّر في جيشك يا كَحُول، لسه قدامك شهور وشهور.
كان يكرّرها بصيغ مختلفة. ظل حسام متدينًا، لكن أحد المستجدين أشار إليه وهو يصلي وقال لي:
- عامل فيها شيخ بروح أمه، وهو السواد مالي قلبه.
بمرور الأشهر، حماس حسام الديني تحوّل إلى جمع القصص عن «الجن»؛ يحكي للجنود قصصًا عن عساكر قتلوا حيث موقعنا، فيستمعون له للتسلية دون تكذيب ولا تصديق. اعتدت أن أسمعه يقول جملته الشهيرة:
- ده الواد بيحلف إنه شاف جني في العنبر.
لم أر أي عفريت ممن يحكي عنهم حسام، ولكني - رغم حبه لي - كنت أجفل عند رؤياه تمامًا كأني رأيت عفريتًا.

(٦) جندي مجند سمير

كل أصدقائه حصلوا على تأجيل من التجنيد؛ لذا توقع أن يلحق بهم، سيخوض إجراءات روتينية تنتهي بأن يعود لبيته.

يوم إعلان العقيد أنه من مواليد الأشهر التي ستلتحق بالجيش عيناه بدتا زائغتين وفيهما لمحة من عدم التصديق لا تنسى.

التقيته في القوة الأساسية وكان لا يزال مندهشًا، دهشته هذه المرة كانت لأن ناموس الصحراء يلدغه مخترقًا ملابسه رغم أنه يغطي جسده كاملًا بالبطانية.

في أول أيامه في القوة الأساسية أسأله:

- إحنا حنعمل إيه الفترة الجاية؟

يبتسم نصف ابتسامة ويقول:

- إحنا حيتعمل فينا إيه الفترة الجاية؟

سمير لم يطلق رصاصة طوال فترة تجنيده. يوم التدريب على إطلاق الرصاص كان في إجازة بالواسطة، لكن واسطته لم تمنعه من الشعور بالقهر. يقول لي:

- إحساس غريب إنك تبقى أقل حد في المكان، تبقى مش عايز حد يشوفك لأنه أكيد حيدبسك في أي حوار أو يطلب منك أي طلب: روح يا عسكري نادي فلان أو هات لي مش عارف إيه، إنك على طول تبقى عايز تستخبى عشان ينسوك، أنا عمري ما عشت مستخبي يا أحمد.

يؤمن سمير بأنه وسط الرمال الصفراء ربما تنجو بنفسك لكنك لن تنجو بغيرك فيقول لي بحكمة:

- ما تركزش مع أي حاجة بتحصل، عشان ما تتعبش.

كنت أنتقده لِما أراه من أنه شخص انسحابي لامبالٍ بأي شيء، حتى قال لي مرة بجدية:

- أنا عندي أمل.

- بجد، في إيه؟

- إنك تيأس قريب.

لكن سمير نسف التصور عن كونه لايبالي، عندما أُبلغ يومًا أنه سينزل واحدة من إجازاته الشهيرة التي ينالها بالواسطة. كان في يده عهدة يفترض أن يسلمها بعد ساعتين، لكن التزامه بالموعد كان يعني عدم اللحاق بأتوبيس العودة وتفويت الإجازة.

أعطى سمير العهدة للجندي المسئول عن البرج، لكن مرور قيادة ما جعلت الجندي يعود لمهمته الأصلية تاركًا العهدة وحدها، وهو ما رصده صف ضابط متحمس للاشيء فأبلغ عن سمير.

سمير عاد وهو ينتظره سجن، لكن اتصالات أقاربه فوتت الأمر، ولأن فردًا ما يجب أن يتحمل نتيجة ما حدث بدا أن جندي البرج «حيلبسها»، ومنع هذا إصرار سمير خلال تحقيق ودِّي مع ضابط الأمن أنه المسئول الوحيد.

سمير حظي باحترام ضابط الأمن وثناء متكرر من الجنود على «رجولته» خاصة أنه خاطر باحتمال أن يسجن هو لأن «هناك خطأ ويُفترض أن يُسجن شخص ما».

بعد سنوات التقيت سمير مصادفة في ميدان التحرير خلال يناير، لأول مرة أرى عينيه تلمعان بحماس وهو يحمل علم مصر ببراءة وطفولة.

مؤخرًا التقيته ثانية، عادت له ابتسامته اللامبالية، نتحدث في الشأن العام فكرر لي جملته المعتادة:

- ما تركزش مع حاجة، ما تركزش.

ما بعد الهايكستب (الموسم الثالث)

كيف تنام وأنت تعرف أنهم يُسمون مكان نومك «عنبر»؟

القوم يسيرون بخطوة معتادة ويصافح بعضهم بعضًا برفع أيديهم بمحاذاة رءوسهم، ويسمون السرير «نمرة» والأول «بِرنجي» والثاني «كِنجي» والثالث «شِنجي».

هذا غريب إن رأيته مرة، وسيكون أغرب وأنت تعيش معهم ما يزيد عن سنة كاملة.

في الصحراء أحببت القمر وعرفت أشياء عن حركة النجوم لكني لم أفعل أي شيء، فالأشياء تحدث وأنت تشاهد، فقط دورك أن تشاهد، ما يعني أن الأمر لا يختلف كثيرًا عما يحدث لديكم في المدن.

(١) الملازم أول حسين

أول مرة رأيته مال نحوي ونصحني أن أتوقف عن قراءة القرآن من المصحف خلال الخدمة «عشان ما يتعلّمش عليَّ». تجاهلت نصيحته فلم أكن أرى في قراءة القرآن ما يثير الارتياب السياسي، وبالفعل لم أتعرض لأي مضايقات.

بعد أيام كنت أقوم بإجراء صيانة روتينية فسألني ضابط زميل له برتبة ملازم أول أيضًا عن مَن كلفني بهذه المهمة فأخبرته أنه الضابط حسين.

فوجئت به يلغي الأمر ويوجهني لأن أفعل شيئا آخر قبل أن يقول باحتقار مشيرا إلى حسين:

- زي ما قالوا لنا عنهم، حتة عساكر بنجمة ما بيفهموش في حاجة.

لم أفهم لحظتها من هم «اللي قالوا له» لكني فهمت أن حسين ضابط احتياط.

كان حسين أشبه بضابط خفي فلا تسمع له صوتًا ولا يذكر في أي حوار كطرف في أي معادلة بالمكان، إذا حضر لم تجده وإذا غاب لم تفتقده.

طلب مني مرة أن أشتري لنا مشروبات غازية من الكانتين، اشتريتها وانتظرت أن يحاسبني على مشروبه فلم يفعل، اعتقدت أنه نسي فنسيت لكني وجدته بعدها بأسابيع يقول لي:

- أنت عارف أنا بقبض كام؟ متجوز ومعايا عيل، ما تزعلش عشان ما بحاسبش.

حسين لم يكن لديه عسكري مراسلة؛ لذا كان يطلب من العساكر أن يغسلوا ملابسه وكثيرًا ما رأيته يفطر على حسابهم.

تردد أنه تقاضى رشوة تافهة من عسكري ليتدخل ويجعله دومًا البرنجي في الخدمة (الأول في ترتيب الوقوف حراسة وهو محبب للعساكر)، وليبعده عن أن يكون الشنجي (الثالث والأخير وهو بغيض لأن ترتيبه الزمني لا يُمكِّن العسكري من النوم) لكنني -للأمانة- لم أر ذلك بنفسي.

قبل انتهاء خدمتي قال لي بمرارة:

- أنت حتخرج وتشتغل وتاخد خبرة، وأنا حخرج بعدك بسنتين أدور على شغلانة، أو تبقى أنت مديري.

لم أكره حسين ولكنه بدا لي مثيرًا للشفقة.

(٢) الرقيب تمامي

- أنا بشُخ عساكر ياد منك له.

هكذا كان يصرخ تمامي في وجهنا. «تمامي» كان أصغر مني سنًّا؛ لذا فلطالما اعتقدت أنها جملة «أكليشيه» مسروقة من صف ضابط أقدم منه.

كغيره التحق بالعمل لأنه بلا مؤهل ولا حرفة ولا مال ولا ميراث، والبائس أن مهنته تحتم عليه أن يكون بلا طموح في الترقي أيضًا.
تمامي الذي يهوى التضييق على العساكر كان يكره المؤهلات العليا والزملكاوية وكل من هو غير منوفي، لكنه كان منبوذًا أيضًا من زملائه صف الضباط ومثار سخريتهم الدائمة، يشير إليه أحد زملائه ويقول لي بكبرياء:
- ده واد مريض تعبان في دماغه، أنا مش زيه، أنا معايا دبلوم، بس كلنا هنا لازم نقدم بالإعدادية.
سخافات «تمامي» كان يجد مَن يبررها له، يقول لي زميلي العسكري الريفي:
- تمامي ده واد غلبان، عساكر وصَف بيتريقوا عليه، فبيحاول يعمل حركتين عشان مايحرجش نفسه.
المثير لي أن هذا العسكري بالذات تعرض لإيذاء مباشر من تمامي في أكثر من مناسبة.
مشاعري تجاه تمامي واضحة ولطالما حاولت التعبير له عنها بكل طريقة. كنت مقتنعًا تمامًا أنه يثبت أن القاهرة هي المدينة التي تسير بها الكلاب في الشارع دون أن ينزعج البشر.
أذكر أنه مر يومًا ووجد زميلًا لنا يسلي نفسه بقطف أوراق لبلاب تلتف حول السلك الشائك فسأل زميلنا:
-مين اللي قال لك تعمل ده؟
- محدش، فراغ مش أكتر.
- مش عارف عدَّت عليَّ إزاي دي، كمل يا عسكري.
لسبب غير مفهوم أجبر تمامي زميلي على أن يكمل قطف اللبلاب كله من السلك الشائك كأنها مهمة مقدسة، يمضي فيقول زميلي بعفوية:
- أيوه هو ده، يا رب اللي كل يوم بَطلُب منك تاخده.
أذكر أن تمامي تبدل معنا فور اقتراب انتهاء خدمتنا وأصبح أكثر ودًّا، فسر زميلي ذلك قائلًا:
- خايف نحطه في دماغنا ونصطاده بره.
يوم خروجنا جاء ليصافحنا بحب مفاجئ وهو يطلق نكات سخيفة يضحك عليها وحده، شد على أيدينا وهو يصافحنا بذعر وارتباك. كنت متأكدًا أن أحدًا من زملائي لن يفكر أبدًا في إيذائه بالخارج وسينسون كل شيء فور رحيلهم من المكان، لكنني -وبشرٍّ صافٍ- ابتهجت وأنا أرى نظرة الرعب في عينيه وهو يودعهم.

(٣) جندي مجند شريف

وسط الزحام يظهر شريف: شخصية اجتماعية خفيفة الظل، دومًا يسير مسرعًا ليلحق بشيء ما.
في بداية تعارفنا يحكي لي عن حياته كعامل في محل حلويات في شبرا قائلًا:
- التورتة تبقى متغرقة سمنة وبيض وبلاوي، وتدخل لي الست الأربعة ريشة من دول تقول لي صيامي، أقول لها صيامي صيامي.
يضحك بسعادة ويضيف:
- عايزين ناكل عيش، إحنا فاضيين لصيامي وفطاري.
لم أرَ شريف يومًا يؤدي أي عبادة، لكنه يقول لي بجدية:
- كده كده هم داخلين النار، حتفرق معاهم البيضة اللي في التورتة.

شريف كان «العسكري المندوب»، دوره أن يأتي بمنتجات غذائية لكانتين الكتيبة؛ ما منحه ميزة النزول يوميًّا.
يطلب منه مجند ريفي مستجد أن يُجري له اتصالًا تليفونيًّا ليُطمئن أهله ويخبرهم بوصوله القوة الأساسية، يرفض ويسخر ملقيًا نكتة ما، أمازحه بأن يكون رجلًا ولو مرة ويساعد أي مخلوق بشري فيرد قائلًا:
- خليك راجل إيه بس؟ أنا العيال كانوا بيغتصبوني وأنا صغير.
بعد أشهر أصبح الريفي المستجد «عسكري الكانتين» بينما أطيح بـ«شريف» من وظيفة المندوب.
بعدها أرى شريف يطلب من زميلنا الذي أصبح مركز قوة أن يتوسط له ليعود «مندوبًا». اللافت أنه كان يطلب بثقة مثيرة للدهشة، واللافت أكثر أن زميلنا فعل.
لم تمضِ سوى أيام حتى طلب زميلنا طلبًا بسيطًا من شريف، لكنه رفض بحسم فقال له زميلنا مازحًا:
- ياد خلِّي عندك دم، ده أنا اللي قايل لهم عليك.
كان شريف يستعد لنزول إجازته اليومية لحظتها لكنه أجابه بمنتهى البساطة: مش فاكر حاجة زي كده.

(٤) جندي مجند عمر

الحمام بلدي والمياه باردة والنوم قليل. لأيام متتالية فور وصوله القوة الأساسية، الشاب الجامعي عمر، كنت أرى عينيه حمراوين من قله النوم، بعدما أصبح ينام كل يوم في مكان مختلف على عكس ما اعتاد عليه من نوم في ظلام دامس وصمت مطبق.
في البداية كان عمر يدعو الله بالصبر، قرب النهاية أصبح يدعو الله باللامبالاة.
منذ اللحظة الأولى وعمر يوصف في الكتيبة بأنه «مع نفسه»؛ يقول لي:
- في كل طابور فيه واحد رتبته أعلى بيقف قدام عمال يهرتل ويرغي ويهدد، سيبك منه خالص وفكر في البت صاحبتك، صحتك بالدنيا.
ثم ينصحني قائلًا: نام كتير جيشك يطير.
رغم ثراء عائلته إلا أنه كان يرفض أن يساعدوه بواسطة، فكان يفخر بقدرته على «التعايش» دون أي مساعدة. عمر كان محبوبا من صف الضباط، فقد كان يقول للجميع «تمام يا فندم» ثم يفعل ما بدا له. يقول لي:
- خد حقك بالخباثة مش بالخناق، ولو حد لبّسك في الحيط لبّسه بس من تحت لتحت؛ الضرب كله تحت الحزام.
اعتاد عمر ادّعاء «التوهان» كي لا يسند إليه أي عمل، وعندما كان ينفذ أي مهمة كان ينفذها بطرق أسهل لتبدو المهمة أنجزت بغض النظر عن كفاءة ما قام به. يقول لي:
- ما تدخلش نقاش مع صف ظابط أو ظابط، ولو في مشكلة عامة إياك تتكلم باسم العساكر عشان هيتحط عليك.
المرات القليلة التي رأيته يعمل بجد كانت عندما يتشارك مع زملاء له في مهمة واحدة، كان يعتقد أنه من الـ«عيب» أن يتركهم ينجزون عمله وحدهم.
أكسبته لامبالاته وقفشاته وهدوء أعصابه شعبية طاغية وسط الجنود، حتى قال لي مرة:

- لو كان فيه هنا انتخابات أكيد كنت حكسبها.
قبل إنهائنا الخدمة بأسابيع تم تنظيم يوم رياضي للجري: الكل يجري بما فيهم الضباط، بينما هو يمشي. انتهى الأمر به أن وصل الأخير تقريبًا، بينما يسبقه الآلاف. يقترب من خط النهاية وهو يعرج مدّعيًا إصابة لا وجود لها، فيقول له الضابط:
- مستكبر تجري يا عسكري؟ يومين خصم من إجازتك.
لا أعرف تحديدًا هل لم يجرِ بسبب كسله الأزلي أم بسبب العناد؟ أجده يبكي في غرفتنا فأسأله لماذا لم تجرِ رغم أنك رياضي، فينتفض وهو يقول لي:
- عمر مايجريش لمجرد أن حد قال له إجري.
عادةً عمر كان يتأقلم مع أي شيء ولكنه هذه المرة لم يتأقلم، ولأول مرة اتصل بأقاربه ليتدخلوا. رأيته بعدها بأيام في طريقه إلى البوابة وعلى شفتيه ابتسامته اللامبالية، وقد عُوض عن اليومين بإجازة أسبوع كامل.

(٥) النقيب محمد

أول ما لفت انتباهي في النقيب محمد أنه الضابط الوحيد الذي يعامل عم جمال (ضابط مِخْلة مسيحي عجوز يحمل رتبة رائد، وهو الوحيد بالكتيبة الذي خاض حرب أكتوبر) بتقدير، مستخدمًا حين مخاطبته صيغه «يا أفندم» الرسمية.
صداقتي مع النقيب محمد تبلورت في مركز التدريب يوم فتحوا لنا غرفة ممتلئة بأشياء شديدة الاتساخ، كانت يومًا ما ملابس رياضية. طلبوا منا ارتداءها لمشاهدة مباراة لحرس الحدود، فاخترت أشدّها تمزّقا وارتديتها فوق ملابسي الرسمية لأضمن ألا تلمس جسدي، فاستوقفني أحد الضباط قائلا:
- يعني تلبس لونين فوق بعض ويبقى شكلك بلياتشو يا عسكري، عشان سيادتك خايف ليجيلك مرض جلدي.
تدخل محمد قائلًا:
- عندك حق يا ابني، يلعن أبو الكورة على اللي بيلعبوها، ما تخليش القرف ده يلمسك.
فيما بعد توطدت علاقتنا؛ فقد رأيته مختلفًا وذكيًّا. راق لي أنه يسخر من كل شيء حوله: التسليح والتدريب والوساطة. لاحظ توتر علاقتي بالضابط قائد السرية، ففسر لي سلوكه قائلًا:
- هو بيتصرف بسخافة عشان قلقان لتتنطط عليه وتفكر إنك زيه، فبيرخم عليك.
- مش بتنطط، لكن ما أنا زيه فعلا، أنا خريج آداب وهو خريج حربية، بيرأسني إداريا مش أكتر.
نظر إليّ بدهشة لحظة قبل أن يقول لي بإخلاص: إداريًّا مش أكتر؟ أنا بحبك ياد يا أحمد، عشان كده بقول لك ابعد عنه، لو عرف إن دي دماغك حيئذيك بجد.
كان النقيب محمد لطيفًا وودودًا، وكان أشياءَ كثيرة منها أنه كان ضابطًا، فقد التقيته مؤخرًا يعمل في قسم المبيعات بشركةٍ ما بعدما ترك الخدمة.

اسمه أحمد.. جندي مجند

(١)

أحمد يتحرك معي، أعرف أنه يحبني. في الحقيقة هو يحبني أكثر مما يحب أي شخص آخر. من جانبي فأنا مقتنع بعقله وأحاول عادة الالتزام بصرامة حكمه الأخلاقي رغم أنني كثيرًا ما لا أستطيع. يبدو لطيفًا لكنه ليس سهلًا كما يبدو عليه، مفتاح لطفه أنه مبتسم دومًا وبدون مبرر، يشك البعض أن ابتسامته أشبه بابتسامة مندوب مبيعات محترف أكثر منها حقيقية، لكن مَن يحبونه يرونه بسيطًا يحب الخير للناس.

(٢)

في الجيش نحن معًا في نفس الوحدة ونفس الكتيبة، اللافت أننا كنا معا في مركز التدريب أيضًا.
في أيامنا الأولى يقف ضابط الصف ويقول لنا: هنا حنعلمكم الرجولة.
ينتفض أحمد من العبارة فأحاول ممثلا صوت العقل تهدئته قائلا: سيبك منه.
يسكت لكنه لم يهدأ، وفيما بعد اكتشفت أنه طوال عام تجنيده لم يهدأ، فمنذ التحق بالكتيبة يحاول التسلل لأيٍّ من نقاط النفوذ ليخوض معركته. فور التحاقه بالكتيبة حاول دخول «مكتب العمليات» حيث يتقرر يوميًّا من يكون في الخدمة ومَن يرتاح لكنه فشل. بعدها حاول أن يكون «عسكري الكانتين» حيث يقرر مَن يحصل على السجائر فنجح.
كذلك حاول أن يكون «العسكري المندوب» ليكون لديه ميزة نزول إجازة يوميًّا فنجح أيضا. كما حاول أن يكون عسكري أمن ليُضيق الخناق على مَن كان يسميهم «صف الظباط المؤذين» لكنه فشل.
خلال كل هذا أقام شبكة علاقات واسعة؛ في البداية لم تؤتِ ثمارها لكنها نجحت بشكل باهر قرب نهاية خدمته. يلفت انتباهي سعيه الدائم لمراكز القوة فيقول لي مفسرًا: أينما وجد ما يغيظ الظباط المؤذين فذاك وطني.
لم يكن هناك أصلا ضابط يؤذيه، ولكنه قرر أن يخوض حربًا مع كل ضابط أو صف ضابط مؤذٍ لغيره. أنظر له بإشفاق، فالفتى الأقرب لي بالعالم بدا مختلًّا كليًّا.

(٣)

في بداية خدمته يأتيه اتصال تليفوني: مساء الخير يا فندم، أحمد موجود؟
اللغة الرسمية تثير ريبة أحمد، للدقة أي شيء رسمي يثير ريبته، افترض أنه استدعاء لأمن الدولة في توقيت غير مناسب وهو يقضي فترة التجنيد فأجاب قائلًا:
- لا، أنا أخوه.
- تمام، أما يرجع قول له إن قائد الكتيبة اتصل.
أغلق السماعة ثم بمنتهى البساطة عاود الاتصال ثانية بصفته أحمد، ليسأله الرائد:
- الصول نوح بيقول إنك شفت العسكري عصام بيسرق من دولابه، ده حصل؟
- سألني مين كان فوق، فقلت له وأنا طالع شفت عصام نازل من هناك، بس الطبيعي إن عصام يكون فوق، أوضته قدام أوضة صف الضباط.
- يعني مشفتش عصام بيسرق؟
- لا يا فندم. يعود أحمد من إجازته فيصرخ فيه نوح بغضب:

- بتكدبني يا عسكري؟ وإيه اللي مقعده فوق لوحده إلا إذا كان بيسرق؟
- قلت اللي شفته يا فندم، لو شفته بيسرق حقول.

(٤)

خلال الأشهر التالية تزايدت مضايقات نوح، لم تنتهِ إلا عندما تمكن أحمد من خلال شبكة علاقاته الانتقال بشكل شبه دائم لحراسة البرج ليبتعد بذلك عن نوح وصَفّ الضباط كلهم.
لاحظ نوح الغياب، ولمضايقة أحمد قرر - على غير المعتاد - استدعاء عسكري البرج في الجمع (الجمع: مناداة دورية للتأكد من انتظام تواجد الجميع بالكتيبة) ذلك بعد البرج عن ساحة الجمع.
ما زلت أذكر مشهد قدوم أحمد جيدًا: نراه جميعًا يقترب منا وهو يأكل رقائق البطاطس «الشيبسي» بهدوء ممسكًا الكيس بحركة سينمائية وهو يضمه في يديه بالكامل قبل أن يفتح يده فجأة ليطير في الهواء. يتجاهل نوح أداء أحمد التمثيلي، وينتبه إلى أن أحمد حليق للشعر بشكل مثالي فيتهلل وجهه ويقول: أخيرًا سمعت الكلام وحلقت صح يا عسكري.
أجابه أحمد بسماجة: لقيت ده أنضف، إحنا قاعدين في صحرا وزفت.
بدت على نوح خيبة الأمل فتابع أحمد: تسلم يا فندم إنك نزلتني، القعدة فوق ملل السنين.
لأيام كان نوح يصر على استدعائه للجمع، ولأيام كان أحمد يمثل السعادة. لم يُبدِ نوح اقتناعًا بسعادة أحمد رغم أن إصراره أقنعنا نحن، لكن نوح -ربما مللًا وربما يأسًا- توقف بعد فترة عن استدعائه.
لفت انتباهي أن أحمد يتحول مع ضباط الصف لشخص سمج ففسر لي قائلًا: لو خدوا عليك هتبقى ملطشتهم وأنت مش هتعرف تهزر معاهم نفس الهزار لأنهم مش هيقبلوا ده منك.
فيما بعد أصبح أحمد «عسكري الكانتين»، يقترب نوح لشراء سجائر فيجيبه أحمد بحسم:
- مفيش.
- يا عسكري عندك جوه.
- تعالَ دوَّر.
طوال أشهر كاملة لم ينل نوح سيجارة واحدة من «الكانتين»، أراه يوميًّا يقترض من زملائه أو من العساكر أو يوصي مَن ينزل إجازة. وطوال أشهر كاملة كان نوح يثأر من أحمد بألف طريقة، يقول أحمد لي:
أتضرب عشرة أقلام وأرد بقلم واحد أحسن ما أتضرب قلم واحد ومردوش.
الحقيقة أنه - وأمامي - دفع الثمن أكبر كثيرًا من مجرد عشر صفعات.

(٥)

العند يورث الجنون، هستريا تجنب ما يجبرونه عليه سيطرت تماما على عقل أحمد. لشهور أراه لا يأكل سوى شرائح البطاطس أو قِطَع الجبن المطبوخ من «الكانتين» كي لا يتناول ما يقررونه له في «التعيين الميري»، وفي نهاية خدمته فاجأني بمعلومة أنه لم يتذوق - طوال سنة كاملة - عدس الجيش ولا طبيخه ولا يعلم إن كانا سيئَيْن أم لا أصلا.
أحمد كان لديه واسطة، وتصادف أنه فور التحاقه بالكتيبة تعرض النقيب هاشم قائد «السرية» للفت نظر عن خطأ ما؛ قائد «السرية» كان مقتنعًا أن أحمد - مستغلًّا واسطته - هو من أبلغ عنه القيادة.

أحذر أحمد من خطورة «أن يضعه الضابط في دماغه» فيبدو لا مباليًا ويقول: هاشم اتشد صدفة أول أنا ما جيت، بس سيبه يفكر كده، هو بيحرق دم العيال ليل ونهار وعجبني إني بحرق دمه.
كنت قلقا من نتائج عناده؛ فبالرغم من أن وراءه واسطة لكن كلَيْنا كان يعلم أن قائد السرية لو أراد التنكيل فسيفعل، لكن بشكل سحري خلال أيام انتقل أحمد من السرية ليبتعد تمامًا عن قبضة هاشم.
أنبهر من الاختفاء في وقت مثالي فيفسر لي قائلا: كنت مخطط أطير، بس كان ممكن تفكس، اللي كنت مخطط له بجد هو أني أبقى مستعد نفسيًّا إني أتفشخ لو فكست.
الغريب أن هاشم شعر بارتياح لاختفاء أحمد ربما لأنه اقتنع فعلًا بأسطورة إن أحمد قادر بالفعل على إيذائه.
قبل إنهاء خدمتنا عاد أحمد لسريته، وفور أن رآه الضابط هاشم طلب منه أن يدفع ثمن «عهدة» ما تنقص «السرية»؛ بحجة أن ذلك هو العرف ليستلمها العسكري المستجد عهدة كاملة. لم يكن أحمد استلم شيئًا أصلا ليضيعه، لكنه هز رأسه بطاعة ثم دخل مكتب قائد الكتيبة وحكى له.
استشاط القائد غضبًا فقد كان يعتبر دفع أي عسكري قرشًا خطًّا أحمر، أحمد كان يعرف فلم ينسَ أن يقول للقائد:
- لو الكتيبة محتاجة، أنا تحت أمرك.
- مفيش حاجة اسمها كده، نادِ لي النقيب هاشم.
وسط زجر القائد لهاشم وفرحة العساكر فيه خرج أحمد، الغريب أنه لم يكن سعيدًا مثلنا بل كان متحفزًا منتظرا انتقام هاشم منه. لم يحدث شيء وخرج ببساطة.
مازلت ألتقي أحمد فهو من القلائل الذين احتفظت بعلاقة وثيقة معهم بعد انتهاء خدمتنا. آخر مرة رأيته كان يشاهد مباراة لا أهمية لها في الدوري المصري ويشجع بحماس، تابعته بدهشة فلم أفهم سر حماسه للمباراة حتى أدركت سر حماسه لفريق ضد فريق. كان أحد طرفَي المباراة طلائع الجيش.

الباب الثالث:
الصحافة
(بتكتب يا أحمد؟)

عيسى.. مقتل الكاتب الكبير

كنت أعتقد أنّ الشخص خفيف الظل بالضرورة شخص نقي حتى التقيت عيسى. يتصور الإنسانُ أشياء عن الصحافة تنتهي عندما يلتقي بعيسى.

٢٠٠٥

في غرفة رئيس التحرير صورة لجيفارا وأخرى لحسن نصر الله وثالثة لمظاهرة يشارك فيها وسط جموع الأمن المركزي.

عيسى ناجح، وأنا أحب النجاح؛ لذا راقبته باهتمام. في كل عدد أرى الصفحة الأولى تتصدرها صورة لمهدي عاكف وثانية لـ «قفا مبارك» الشهير وثالثة لجمال مبارك، ونبيع ونكسب ونبيع ونكسب.

كان يجيد صناعة خلطة صحفية شعبية. المكاسب تتزايد فتتزايد معها طلبات المحررين في أجور عادلة. نطلب اجتماعًا معه فيوافق بعد عدة أسابيع، لكنه يبدأ الاجتماع قائلًا: أنا جاي النهارده أتكلم بس.

أسمع صوتًا خلفي: «أيوه زي كل مرة يعني».

ينتهي الاجتماع بما ملخصه «اللي مش عاجبه يمشي مش حتخانق مع رئيس مجلس الإدارة عشانكم»، فتقول لي دعاء زميلتنا: طبق صيني واتكسر قدامي.

خلال سنوات يراقب عيسى صفحات محرريه على الإنترنت ويحيلهم إلى التحقيق عندما ينتقدونه، ومع الوقت أصبح في قائمة أصدقائي ٢٢ صحفيًّا - أحصيتهم مرة - فصلهم من جريدته خلال مواقف مختلفة بينهم أربعة من الخمسة الذين كانوا يتفاوضون باسمه وباسم الصحفيين حينما أقاله رئيس مجلس الإدارة.

تأملته باهتمام واستفدت كثيرًا، فقراءة الروايات الرديئة تعلمك ألا تكتب مثلها.

٢٠٠٧

كنت أعمل في الديسك المركزي (جهة الصياغة النهائية للموضوعات الصحفية) بالإضافة إلى نشري ما يزيد عن ٢٧ موضوعًا صحفيًّا (بروفايلات) خلال شهر، لكنني فوجئت براتب هزيل.

رفضت أن أتقاضى ما أسموه «الراتب» ودخلت عليه مكتبه معترضًا فضرب على مكتبه بقبضته وسألني: وأنت إزاي تسكت على كده؟

ارتبكت لحظة قبل أن أقول له:

- أسكت. ما أنا بقول لك.

- لا لا ماينفعش السكوت على الحق ده منك أبدًا، أنا حتدخل.

وتدخل؛ ذهبت إلى المحاسب بعدها بنصف ساعة لأجد الراتب لم يزد سوى ما يوازي أجرة الذهاب بتاكسي للعمل يومًا واحدًا.

كان هذا آخر يوم «فعليًّا» لي في الجريدة.

٢٠٠٧

يمكنني تفهم إرساله جواب فصل لي مدعيًا أنه الإنذار الثاني بينما لم يرسل الإنذار الأول من الأساس، أتفهم ولا أهتم.

لكني لم أفهم يومًا الإيذاء لمجرد الإيذاء. استوقفني كثيرًا إصراره على إرسال خطاب لوقف بدل النقابة لي (بدل نقدي يدفعه المجلس الأعلى للصحافة للصحفيين أعضاء النقابة)، وعندما تجاهله مجلس النقابة أرسل خطابًا للمجلس الأعلى للصحافة.
يتحدثون عن مواقف يصفونها بالمتلونة، وماذا يعنيني من هراء مواقفه؟ هو مؤذٍ وأنا أكره المؤذين.

٢٠١١

أراه ثانية لكن هذه المرة في ميدان التحرير يوم ٢٥ يناير ٢٠١١.
يلتف حوله الشباب ويبدو كقيادة. فيما بعد التقطت له صورة شهيرة مع البرادعي ثم أصبح مقدمًا لبرنامج على الجزيرة، لكنه كلما راهن على سياسي أو موقف يفاجأ بهجوم شبابي، يرتبك، من هؤلاء؟ هو يعارض مبارك قبل أن يولدوا، هو قائد، معلم، قيادة تاريخية، كيف يحق لهؤلاء انتقاده؟
ما انتظره من الثورة لم يحققه له ما اعتبره «رعونة شبابها» فقرر أن يغير وجهته نحو جمهور آخر.

٢٠١٣

أشاهد التلفاز، وأفهم من عيسى أن زياد بهاء الدين رجل مثالي والأفضل أن يرحل من الحكومة لأن هذا ليس وقت مثالية ونقاء. بهذا الوضوح يتكلم.
يتحدث عيسى عن شباب يناير ممن يسميهم «مخنثين فيزيقيًّا». ومَن كان يسخر من فكرة الوطنية والهوس بحماية الدولة ويكتب في أهمية الاستقواء بالأجنبي مستشهدًا بلجوء الرسول لأهل المدينة، أصبح لا يتحدث سوى عن المؤامرة العالمية على مصر ومهنية الإعلام المصري بالمقارنة بالإعلام الغربي.
من كان يمدح في أموال خيرت الشاطر الحلال أصبح يؤيد سحق الإخوان، ومؤسس الحزب الناصري عام ١٩٩٣ أصبح يؤيد حصار غزة. يندهشون منه بعد الثورة، فهل عرفتموه قبل الثورة؟

٢٠١٤

عادة لا أشاهد لقاءات تلفزيونية، لا أهتم.
لكن اليوم الأمر مختلف؛ فرئيس التحرير المفتخر بقدراته البلاغية وبتصديه للسلطة يجلس أمام رأس السلطة.
الموضوع لطيف يستحق المشاهدة، يبدأ الحوار ويتحدث عيسى بتلقائية وفجأة يصدمه محاوره قائلا: مش حسمح لك مرة تانية تقول...
اللحظة التي أنتظرها حانت، تبرق عيناي بشغف وفضول، ينكمش عيسى بشكل يدعو للرثاء، يبدو منسحقًا.
لم أكن أتوقع أن يتم الأمر بهذا السوء، أتساءل أسئلة عميقة عن الحياة والنجاح والمهنية بينما يتساءل أحمد مطر سؤالًا أبسط قائلًا: «هل نبكي لكلب الصيد إن أَوْدَى به الصياد؟».

٢٠١٤

عيسى يضرب من جديد.

لعبة التسعينيات الشهيرة، انتقاد الحكومة والابتعاد عن مَن عيَّنها، يكتب مانشيت «منورة يا حكومة» ساخرًا من أداء الحكومة في أزمة الكهرباء، لكن هذا لا يروق للسلطة الجديدة فيقول ممثلها:
- يعنى إيه منورة يا حكومة؟ أنت بتعمل إيه؟ يعني إيه تقول منورة يا حكومة؟ إنتو مكنتوش متوقعين كده ولا إيه؟
عندما انتهى الخطاب قررت متابعة أول حلقة بعدها لعيسى، لم يعقب على ما قيل لكنه كان يتحدث في شيء ما آخر بانفعال. أغلقت زر الصوت وأخذت أشاهده وهو يحرك يديه بحماس ومرارة. وابتسمت.

*

«مهما كان من قذارة الفأر فإن شكله في المصيدة يثير الرثاء». نجيب محفوظ.

٢٠١٥

لا أحترم مواقفه ولا ما يمثله.
لم تعد كتابات عيسى مؤثرة ولا جريدته شعبية، لكنه ما زال يحرك يديه بانفعال، مازال يملك مرادفات كثيرة لنفس الكلمة، مازال لديه جمهور،مازال يجمع المال، ما زال يكتب عن كل شيء إلا عن السلطة التي طالما كان لا يكتب إلا عنها لسنوات، وما زال طفل جارنا كلما ضربه أبوه يذهب لأمه ويصرخ فيها شاكيًا بغضب وثورة، ثم يدخل لينام.

خالد البلشي.. مديري الذي أحبه

٢٠٠٠

عندما بلغت ١٩عاما كنت قد انتهيت من كتابة رواية ومسرحية ومجموعة قصصية وكتاب سياسي.
لم أعرضهم على أحد ولم يناقشني فيهم أحد، كنت أكتب لكنني لم أحترف الكتابة، لماذا؟ لأني لم أكن التقيت حينها بخالد البلشي.
أظن أن السبب واضح.

٢٠٠٥

أشاهد في التلفاز تقريرًا إخباريًّا عن فريق جريدة الدستور التي كنت أتابعها منذ إصدارها الأول، أشتري العدد وأعرف منه عنوان الجريدة، ثم أصطحب معي كتابي الضخم الذي كتبته في ثانوي وأتناول فيه كل مشاكل مصر مقترِحًا لها حلولًا - لو سمحت لا تسخر من طفولتي - ليقرأه القائمون على الجريدة كي أعمل معهم.
أصل إلى منتصف الطريق لكن الله يلهمني أن أحدا لن يقرأ كتابًا. عدت للمنزل وتركت سخافات الكتاب لأكتب موضوعين أحدهما يسخر من الحزب الوطني والثاني يطالب بالحرية لكافة التيارات السياسية.
أذهب بهما إلى مقر الجريدة وهناك ألتقي بقيادة صحفية فينظر للعنوان بعدم اهتمام ويقول لي:
- الموضوع ده اتكتب عنه قبل كده.
لم أفهم وجهة نظره فكل شيء كُتب عنه من قبل، فأقول له حكمتي التي ستلازمني دوما:
- الفكرة مش كاتب إيه، الفكرة كاتب إزاي.
هز رأسه دون أن ينظر للموضوع بما معناه «الواد ده باينه أهبل وحيخنقني»، ثم أخبرني عن موعد اجتماع قسم التحقيقات يوم الأربعاء إن أردت التدرب في الجريدة.
عدت للبيت محبطا لكن هذا لم يمنعني من أن أدعو الله أن ينشر الموضوع. لم يكن الحوار الذي دار في مقر الجريدة يشير إلى أي نشر، لكني مع تكرار الدعاء أصبحت على يقين من أن الموضوع الذي لم يقرأه أحد أمامي سيُنشر.
اشتريت العدد التالي وبحثت عن الموضوع ثم ابتسمت طويلًا بطمأنينة عندما وجدت الموضوع وعليه اسمي.
إنها معجزة، معجزة.

٢٠٠٥

في جريدة الدستور شاب في الثانية والثلاثين يرتدي منظارًا طبيًّا ويميل إلى السمرة، هو أول شخص يأتي للعمل وآخر مَن يرحل وحوله يلتف عشرات الشباب المبتدئين يُعلِّمهم.
خالد البلشي الذي كان يشغل منصب مساعد رئيس التحرير، وقع في يده موضوعي بالصدفة فقرأه ورشحه بحماس لرئيس التحرير والذي وافق على نشره.
في أيامي الأولى في الجريدة يناديني رئيس التحرير فأرد عليه ببساطة كما أرد على أصدقائي:
- أؤمر.

أسكت قليلًا وألوم نفسي كيف أخاطب رئيسًا قائلًا: «أؤمر»؟ أتجمد ولا أتحرك أمام تأنيب الضمير، يندهش من وقوفي فجأة فينادي ثانية، فأتحرك نحوه قائلًا بجفاء غير مبرر:
- نعم، عايز إيه؟
صمت مطبق ساد صالة التحرير بينما الجميع ينظرون لي بدهشة.

٢٠٠٦

لا أعلم إن كان خالد لاحظ توجسي الفطري من السلطة أم لا، لكنه استطاع بشكل سحري أن يفتت هذا التوجس عبر علاقة صداقة متينة ربطت بيننا.
العشرات ممن استقبلهم خالد أصبحوا الآن من أهم الكوادر الصحفية والتلفزيونية في الإعلام، يقول لي صديقي الذي يُعد من أهم الصحفيين والمعدين التلفزيونيين اليوم:
- كنت أفكر في العمل في الصحافة أو الإعلانات، اتصلت بسالي السكرتيرة وقالت لي تعالَ الساعة ٢ يوم الأربعاء، كنت فاكر إني رايح مقابلة فاكتشفت أنه اجتماع القسم وقدمت أفكارًا اتنفذ منها حاجات، اشتغلت واتعلمت.
وعقب نشر أول موضوع لي في الجريدة بدأت التدرب مع خالد لأنتقل من خانة «الواد ده اللي بيكتب حلو» إلى صحفي يبحث عن معلومة.
أتعلم أن أذهب إلى الأرشيف وأبحث في الإنترنت وأتصل بالمصادر وأتواجد حيث الحدث. أفهم أنك إن لم تكن تعرف فلا معنى لرأيك؛ فحتى مقال الرأي يجب أن يعتمد على معلومات.

٢٠٠٦

خلال تصاعد احتجاجاتنا على الأجور يعرض رئيسنا في القسم «خالد» على رئيس التحرير مطالبنا. لم نتلقَّ ردًّا، ولكن بعدها بأسبوع ذهبت إلى الجريدة ومعي تحقيق صحفي لأسلمه إلى رئيسي في القسم، لا أجده فأسأل عنه قيادة في الجريدة فيجيبني بلهجة ذات مغزى:
- أنت شغال مع خالد ولا معانا؟
فهمت؛ خالد لم يعد له وجود في الجريدة. كان ينتظر أن أقول «معكم» لكني أجبته بسماجة:
- شغال في الجورنال.
أعتقد أنها كانت إجابة جيدة، لكن بعدها بيومين صدر قرار -لم ينفذ- بوقف تعييني في الجريدة.

٢٠٠٨

لجأ خالد للقضاء لتعويضه عن فصله التعسفي وعلمت أنه يبحث عن شاهد إثبات يؤكد عمله في الجريدة.
بدا الأمر عجيبًا، له مقال أسبوعي واسمه على الترويسة، لكن الأمر يحتاج شهادة في المحكمة.
تطوع الصديق أحمد الدريني للشهادة وقررت أن أكون الشاهد الثاني رغم أني كنت ما أزال أعمل في الدستور.
بعد شهادتي بأشهر لم أعد في الدستور. خالد كسب القضية وأعتقد أنني كسبت ما هو أهم من القضية.

٢٠٠٩

بدأ خالد تجربة صحفية جديدة «البديل» لتكون واحدة من أربع جرائد مع صوت الأمة والدستور والعربي تعارض الرئيس حينها، الجريدة ساهمت في دعم مساحة المعارضين للنظام السلطوي.

التفاصيل الصغيره تزيد انبهاري به: حيرته في توزيع الرواتب مع ضعف الميزانية، وانشغاله بتدريب الصحفيين رغم مهامه الإدارية.
بسبب التضييق على الإعلانات ولأسباب موضوعية أخرى صدر قرار من مجلس الإدارة بإغلاق «البديل».

٢٠١١

بعدها بعام أسس موقعًا إلكترونيًّا يحمل اسم جريدته المعطلة، ليتحول الموقع إلى منصة للدعاية لينابر قبل أن يقتحم الأمن مقر الموقع الإلكتروني خلال الـ ١٨ يومًا.
تنجح الثورة في الإطاحة بمبارك لكنها تفشل في إتاحة فرصة لخالد ليكون رئيس تحرير جريدة ورقية.
يقرر خوض انتخابات النقابة بلا تيار ولا مؤسسة فيخفق بفارق ٢٠ صوتًا عن منافسه. أوصله أنا وعمر الهادي لمنزله وأسأله:
- حتدخل الانتخابات الجاية؟
- مش حكررها.
كررها، وفي المرة الثانية فاز.

٢٠١٥

أعتقد أن بداياتك في أي مهنة تحدد مسارك؛ إذ تتيح لك تعلم قواعد العمل وأخلاقياته، لتجد نفسك دون أن تشعر لديك أسس محددة تتعامل بها وتعتبرها «العادي» وما دونها «الاستثناء».
كلما ذُكر اسم خالد أتذكره وهو يجري في الجريدة الساعة الثانية عشرة مساء بحثًا عن صورة لصحفية لينشرها في العدد السنوي كي لا تفوتها الذكرى رغم أنهما لم يكن بينهما وفاق أصلًا.
الآن لم يعد خالد مديري وأصبح صديقي، هذا هو الأهم.

أحمد خير.. لأن طريق السعادة هو طريق المطار

٢٠٠٩

في قرية «العطوي» بدمياط توجد عائلة أحمد خير حيث لا يوجد شيء.

تقول الآية الكريمة: ﭽ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖﮗﭼ، ويقول صديق خير لمراسلة «دريم» عندما يراها في بلدته لإعداد تقرير تلفزيوني:

- عندكم فرص تدريب؟ خير صاحبي حيبقى مذيع ممتاز.

لم يكن لدى خير شجاعة أن يسأل المراسلة التي أصبحت بعد عده أشهر زميلته، بدا مرتبكا للحظة فحسم له صديقه أمره باصطحابه إليها قائلا: لا تتردد، سافر.

يناير ٢٠١١

من كانت تسليته الوحيدة المشي في الغيطان أو على النيل أصبح مراسلا تلفزيونيا، أراه صدفة في ميدان التحرير. كنت التقيته مرة أو مرتين، نتبادل حوارا قصيرا ثم يقول لي بعصبيةٍ:

- أنا ماشي يا أحمد، حسيب لهم الشغل وأرجع دمياط.

أحاول فهم سبب غضبه فيقول لي:

- قالوا لنا اسحبوا الكاميرات، ده شغلي،عايز أعمل شغلي.

أعتقد أنه ليس من الحكمة ترك العمل قبل أن تجد بديلا، لكنه بعد أيام استقال ويشرح لي قائلا:

- لو مشتغلناش النهارده حنشتغل إمتى؟ جاي هنا أعمل شغل، مش بشتغل عشان أفضل هنا.

نوفمبر ٢٠١١

تطورت صداقتي مع فتى الميدان المخلص الأكثر حضورا في الفعاليات، مازلت أذكر شكله مرتديا قناع الغاز وخوذة العمال لحماية رأسه من الخرطوش والحجارة في المظاهرات.

لأعوام عشنا معًا البهجة الكاملة قبل الضياع الكامل، لا أسأل نفسي إن كنا سذجًا لحظتها، ما يشغلني حاليا سؤال ماذا كنا نريد من بلد تسحب فضائياته الكاميرات يوم ٢٥ يناير؟

ديسمبر ٢٠١٢

أمام قصر الرئيس يشتبك جند الإسلام مع فتاة تحمل كاميرا، يدافع عنها خير فينهالون عليه ضربا، يوشك أن يغمى عليه لكنه يرى ملامح غائمة لشاب بلحية خفيفة يقول له:

- شفت اللي حصل وعارف إنك مغلطتش، متزعلش مننا.

كان هناك أكثر من سبعة آخرين يضربونه وكل اهتمام الأخ كان بصورة الإخوة أمام من يعتدون عليه.

الكاميرا سُرقت وأحمد انتقل للمستشفى، وكل ما يهم الأخ الصورة، فقط صورة. كان كل شيء واضحا، فكيف لم نرَ؟

أغسطس ٢٠١٣

قادونا لمعركة لا مبرر لها فقادوهم لمذبحة لا مبرر لها.

خلال أشهر تغير العالم، أصدقاؤنا لم يعودوا يشبهوننا ولا يشبهون أنفسهم، فلم يعودوا أصدقاءنا ومن أرادوا أن يكونوا شمعة تحترق من أجل الآخرين أصبحوا شمعه تحرق الآخرين، أقول لصديقي:

- أكيد الظلم ده له نهاية يا خير.
- اطّمّن، بعد شوية مش هيلاقوا حد يظلموه.
وسط ضيق ذات الروح نشاهد معًا فيلم «ثرثرة فوق النيل». يبدو أبطاله بائسين جدا فأسأله:
- هو إحنا حننتهي كده؟
- إحنا انتهينا كده.
لكن تتر نهايتنا كان مُشرفًا. يتقدم في حياته المهنية من مراسل إلى مذيع، ومن يتوتر وهو يتعامل مع «منيو» المطاعم انتقل ليسكن الزمالك.
نجحنا لكن البلد فشل، نهايتنا رائعة لكن ذلك لا يغير من حقيقة أنها نهايتنا.

يناير ٢٠١٤

من كان يختلس الكتب من مكتبة أخبار اليوم في رأس البر أصبح مذيعا، تشير أمي إلى التلفاز بفرحة قائلة:
- صاحبك يا أحمد، صاحبك.
ألتفت فأجده على الشاشة، يدير حوارا مع خبير أمني عقب تفجير إرهابي فيطارده بالأسئلة ليستخلص منه الإجابات.
كانت أول مرة منذ سنوات أتابع تغطية إخبارية في قناة مصرية رغم عملي معدًّا تلفزيونيًّا.
كنت فخورا به، فلماذا لم أره ثانية في أي تغطية إخبارية؟

ديسمبر ٢٠١٤

يحصل مبارك على براءة، نلتقي في مظاهرة احتجاجية يفرقها الأمن، يختفي من أمام عيني لأراه بعدها بساعات في التلفاز يقول قبل أن يقرأ الخبر بنشرة الأخبار:
«تامر صلاح، رامي عبد العزيز، شهيدان سقطا اعتراضًا على براءة مَن قتلوا أبناءنا وإخوتنا أمام أعيننا. يُراد لنا الآن أن نُردّد هذا السؤال الأبله الذي يقول: «من القاتل؟»، وكأنّنا لم نعرفه، ولم نره.
كأننا لم نكن إلى جانب هؤلاء الذين خرجوا هاتفين من أجل حريّة لم نرها، ولا كرامة إنسانيّة تُنتهك حتى الآن».
قرأها سريعا قبل أن يقاطعه أحد، الفيديو شاهده أكثر من مليون مشاهدة خلال أسبوع واحد، فتأتيني التعليقات ملخصها: «صاحبك ضيع نفسه، محدش تاني حيرضى يشغله».
يقال إنه ليس من المهنية التعليق على خبر فلماذا لا يقال إن إخفاء الحقيقة ليس من المهنية؟ القواعد وجدت لتصل الحقيقة للناس والقواعد تكسر لتصل الحقيقة للناس.
هناك من يرون القاهرة سميت قاهرة لأنها تقهر أهلها، يضيق الخناق وتتضاءل فرص العمل فيسألني:
- تفتكر الحل إننا نسافر؟
- الهروب بالشكل ده مش حل.
- إيه رأيك؟
- نهاجر.
نضحك على الدعابة السوداء، الآن أضحك كلما تذكرت أننا كنا نتصورها مجرد دعابة سوداء.

٢٠١٥

سعد زغلول نُفي، كذلك عرابي ورفاقه كانت عقوبتهم النفي بعدما فشلت ثورتهم، فلماذا صارت عقوبتنا المنع من السفر عندما فشلت ثورتنا؟

منذ سنوات كتب على صفحته على تويتر: «المؤسسة الإعلامية التي أعمل بها لا تعبر عني»، ومنذ أسابيع تلقى عرض عمل في أوربا.

يقال دوما: ليس العيب الهروب من القاع، لكن العيب ألا تدرك أنك في القاع، فهل أنصح صديقي بالسفر؟

تاهت ولم نجدها. قاسٍ أن تودع صديقك للمطار لكني سبق أن ودعت آخرين للحبس، وشباك الطائرة أجمل كثيرا من سياج القضبان.

هل سيسافر؟ أيا كانت الإجابة أعلم أنه مجتهد وسينجح، كنت أتمنى أن ننجح نحن.

في الكابوس يحلم خير كثيرا أنه تائه في زحام شوارع القاهرة. وفي الواقع ألقي القبض عليه ثلاث مرات خلال تغطيته الصحفية لأن بطاقته مكتوبًا بها دمياط وليس القاهرة.

أكثر الأشياء المرعبة لخير فَقْد الناس بالموت أو السفر، لكنه ربما يسافر ويعيش غريبا وربما يبقى ليستوقفوه بسبب بطاقته لأنهم يرونه غريبا.

الباب الرابع:

التنظيم

(حكاية مَن سقط حكمهم دون أن يقفز أحد من فوق سور قصر الاتحادية)

كان فيه وخلص أخي في الله

١٩٩٥

عندما كنا ندرس في الابتدائي أن السيارات ستسير بعصير القصب عام ٢٠٠٠.
وعندما كان «بم بم» حريصا على أن «يقدم جوايز»، وظل «سافو» حافظا مقامه، بينما كان هناك إنسان فخور بشكل غير مبرَّر في الإعلان بأنه «نحن البربري».
عندما كنا نشاهد «اخترنا لك» يوم الأربعاء، بينما عمرو خالد يتحدث عن حب الله في بيوت أصدقائه في المهندسين، وحزب التجمع يقود المعارضة في البرلمان.
عندما بدأ أحمد خالد توفيق في كتابة أول قصة في سلسلة «ما وراء الطبيعة»، وانتقل رضا عبد العال من الزمالك للأهلي بـ ٦١٥ ألف جنيه لمدة خمس سنوات في صفقة وُصِفت بالخيالية.
عندما كنت في أولى ثانوي، وكانت أهدافي في الحياة إصلاح كوكب الأرض والانتهاء من قراءة سلسلة «رجل المستحيل» وحفظ الجزء الـ ٣٠ من القرآن.
وقتها تعرفت على الإخوان.

١٩٩٦

أريد التقرب إلى الله فأقرر الانتظام في الصلاة بالمسجد، هناك ألتقي بأستاذ عبد المنعم؛ خريج جامعي بالغ اللطف يقول لي:
- تعال العب معانا كرة.
أجلس مع أستاذ عبد المنعم في المقرأة لأتعلم أحكام التجويد، أخرج مع أحمد شمس لتوزيع وجبات رمضان، أمر على الأطباء لإقناعهم بقوافل طبية مجانية للفقراء.
أتقاسم مع حسام ياسين كوب الماء البارد الوحيد خلال سفرنا للإسكندرية بينما والدتي تقول لي: «أصحابك مؤدبين جدا يا أحمد».
أصدقاء المسجد أكتشف أنهم الإخوان، هل أحب الإخوان؟ قطعا أحب الإخوان، يدهشني أن هناك شخصا بالعالم لا يحب الإخوان.

١٩٩٩

وأعانه عليها قوم آخرون.
أقف في المدرج مبتسما أنظر في عيون الطلبة بثقة، أقرأ القرآن ثم أبدأ في الحديث عن التوبة ومساعدة الناس.
الغالبية تستمع بإنصات، فجأة يقف طالب مُشيحًا بيديه بغضب ثم يخرج محتجا.
يبدو كارها لي بوضوح. أنزعج؛ فنادرا ما كان لي خصوم أو حمل أحد ناحيتي ضغينة. أُنهي حديثي بسرعة وألحق به ثم أسأله بمودة:
- أنت زعلان مني في حاجة؟
- بتعمل كده عشان انتخابات اتحاد الطلبة.
ساءني كلامه؛ فلم أكن أفكر في أصوات انتخابية. أوضح مقصده قائلا:
- نازل انتخابات اتحاد الطلبة كمان شهر قدامك، كل اللي بعرف أعمله نشاط للطلبة، أنت اتعرفت وبتدخل المدرجات، أنافس إزاي الولد اللي خلَّى دي تتحجب وخلَّى ده يصلي؟
تعالت حولنا أصوات: «ما تعمل زيه» أو «آه بيتكلم صح»، لكني لم أخض جدالا.

اقتنعت، ووحدي فكرت طويلا مرتبكا قبل أن أتعهد أمام نفسي بعدم الاشتراك في أي عمل تنافسي أو انتخابي مستفيدا من شهرة لم تخلقها السياسة.
بدا القرار لي بسيطا، لكنه لم يكن كذلك للتنظيم.

٢٠٠٠

مظاهرات التيار الإسلامي «حضارية» تسير في طابور منظم، بينما تتطور مظاهرات «الطلبة الاشتراكيون» إلى اشتباكات بالحجارة مع الأمن فيجمع مسئول الجامعة طلبة التيار الإسلامي موضحا أن دورنا إيقاف ما يحدث قائلا:
- اتفقنا نفصل بينهم.
لا يعجبني الأمر، فأقول له بعصبية:
- إيه الكلام ده؟ نفصل بين مين ومين، وافرض اتجرّينا لاشتباك مع طلبة زينا.
- يعني يرضيك العساكر الغلابة اللي بيترمي عليهم طوب دول؟ مش حرام يعني؟ واطمّن رايحين نمنع الصدام.
تحرك زملائي طلبة التيار الإسلامي بينما تجمدت معاندا في مكاني.
لم يعاتبني أحد؛ ربما لأن الانطباع السائد أن الجدال مع «الواد اللي بيقرا كتير ده» ينتهي بانتصاري كلاميا، وربما لأني كنت مشهورا بمزاح يمنع الوصول معي لأي نتيجة.
لا أعلم، هو فقط تجاهلني وواصل قبل أن يعودوا سريعا دون أن يفعلوا شيئا عندما وجدوا الأمن فض مظاهرة الطلبة بالفعل.
مر اليوم ولم تمر تساؤلاتي، وكل شيء يبدأ بالتساؤل.

٢٠٠٧

اختفى الإخوة من حياتي لسنوات بعد التحاقي بالتجنيد ثم انشغالي بعملي بالصحافة.
بعد سنوات أشتاق لأصدقائي، أعود للقاء بهم فأنضم فعليا للتنظيم (عضو منتظم)[*].
عدت بأفكار؛ في لقاء الأسرة يتحدث النقيب[**] عن حق الأخوة. آيات وأحاديث جميلة عن حب أخيك تخلُص إلى أن من حقوق الأخوة إذا تقدم للعمل الذي تديره اثنان فواجبك تفضيل المسلم على المسيحي والملتزم على غير الملتزم وعضو التنظيم الذي يدعو معك إلى الله على الملتزم العادي الذي لا يحمل همَّ تحكيم شرع الله، فقاطعته قائلا:
- ده فساد.
بدا مصدوما من وصف ما يراه حق الأخوة بالفساد فدافع قائلا:
- أكيد لو «اللي مش أخ» أكفأ تختاره، بقول لو تساويا في الكفاءة تختار الأخ.
- وأنا بقول «ده فساد».
حاول أن يشرح فكرته عبر ما يعتبره المدخل الأكثر وضوحا وهو تفضيل تعيين المسلم على المسيحي.
أسخر منه فيرد متصورا أنه تخلص مني بالقاضية:
- مَن أحب قوما حُشر معهم، بتحب المسيحيين؟
- آه، بحبهم، أنت متخيل إني بكرههم؟
- حتتحشر معاهم حبيبي.

٢٠١١

ما أصعب الهدم وما أسهل البناء.
اكتشفت أن السلفيين ليسوا وحدهم السلفيين، أفكار الإصلاح تتحول إلى أفكار ثورة. أكتب مقالات منتقدة للتنظيم فأُحال للتحقيق، أسك مصطلح المبرراتية فأُحال للتحقيق.
انتهت علاقتي بالتنظيم تدريجيا، يقتربون من السلطة فأقترب من الرحيل، أدرك أنه لا معنى لأن تنتمي لمن صرت مرتابا منه لدرجة عدم انتخاب قائمته أصلا في مجلس الشعب.
بعد أحداث محمد محمود بات الأمر محسوما لديَّ، فأكتب ليس عن سبب تركي لهم ولكن عن قضايا تصب في وجوب تركهم هم للتنظيم.
ألتقي «فخري»؛ وكان واحدا من أقرب الناس لقلبي خلال سنوات الجامعة، يقول لي:
- عاملين دوشة على بنت اتعرت، علشان يخدموا على تيار بعينه، فاكرينا هبل حنصدق إن الكاميرات كانت جاهزة تصور أول ما العساكر ما قربوا من البت بتاعتهم، وإنها مش قصة مترتبة عشان يبوظوا لنا الانتخابات.
ثم قال لي بحكمة:
- بس أنا مش مع الإخوة اللي بيتكلموا في ده علنا، ده يخسرنا، وليس كل ما يُعرف يُقال.
تحدث طويلا فاستمعت له بإنصات وهدوء حتى قال بانزعاج:
- مبتردش ليه؟ هو أنا بكلم نفسي؟ عايز أسمعك.
تكلمت، لذا أعتقد أن علاقتنا انتهت للأبد.

يناير ٢٠١٣

تقتل الداخلية ٧٢ شخصا(***)، أنشر صورة لوالدة أحد الضحايا عبر حسابي على فيسبوك فيعلق عبد الرحمن عندي قائلا:
- أنت مش فاهم حاجة يا أحمد، الداخلية أخيرا بتقف ضد مؤامرة العلمانيين والبلطجية على الرئيس المسلم.
أستاذ عبد الرحمن علَّمني أحكام الفقه، وما جدوى الفقه إن كان سيبرر قتل الناس؟
أفزعني التوحد النفسي مع السلطة، فأُصاب بهوس البحث عن عضو بالتنظيم يدين إزهاق الشرطة للأرواح.
النتيجة: لم أجد أحدًا. ربما رفض شخص من التنظيم القتل، ولكن الأكيد أنه من بين مئات ومئات كانت تربطني بهم علاقة وتحدثت معهم أو تابعت آراءهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي لم أجد أحدًا.
أتأملهم بريبة؛ أصبحت واثقا من شماتتهم لو قُتلت أو مُنعت من الكتابة أو سُجنت باعتبار أن هذا عقاب إلهي لمعارضي ما يسمونه «مشروعهم الإسلامي».
كان عبد الرحمن الأقرب لقلبي، الآن لم أعد أرتاح أصلا لوجوده في دائرة معارفي.

٢٠١٣

«قلوب لم تجتمع وأحباب لم نرهم ولكننا نذكرهم في دعائنا، أحبك الله».
هكذا وصلتني رسالة من صديقي خلال الجامعة حمادة، كانت مريبة جدا، أننا أحباب. أفهم من ذلك أنه لا يتابعني الآن.

أرد على رسالته بتهذيب حذر، ولم تمضِ سوى أيام حتى كتب لي على فيسبوك:
- لقيت حسابك هنا، أعتقد إن اللي أنت متصور معاه ده هو... (ذكر اسم صديق ناشط)، هي وصلت لكده؟ اللهم ثبتنا على طريق الحق.
- أنت زعلان مننا في حاجة؟
- مننا؟ أكيد قصدك العلمانيين الشواذ، أصحابك اللي بيحقدوا على الإسلام ومسلمين بالبطاقة اللي تلاقيك بقيت بتكره الدين زيهم.
رددت على ما اعتبرته إهانة بإهانات أشد فبُهت قائلا:
- إيه ده؟ أنت بتشتم ؟ أحمد اللي أعرفه صاحب مبادئ ومحترم.
ومَن كان يرفض أن يشاهد برنامج باسم يوسف الساخر وحجته أن الله قال: چ ئا ئه ئه ئو ئوچ أصبح ينشر على حسابه فيديوهات جوتيوب الساخرة.
بدا لي مثيرًا للرثاء، لم يعد لديه أي معيار موحد للصواب والخطأ.
كلنا نخطئ؛ لكنني أكذب فلا يحوّل هذا الكذب إلى حلال، أسب فلا يكون السباب تقربا إلى الله، أخطئ فلا يصبح خطئي صوابًا، والأهم أعرف أنك يمكن أن تهزمني في جدال دون أن ينهزم دين الله.
«مررت على الإخوان»، حالي أفضل من غيري، فالكثيرون مروا على التنظيم في شبابهم، والكثيرون مر التنظيم على شبابهم.
حمادة لم يعد يرسل لي رسائل ودودة في المناسبات، خسرت مَن كانوا يروننني أخًا في التنظيم.
أتمنى أن أكسب إخوة في الله وفي الإنسانية.

(*) بعد التأسيس الثاني لجماعة الإخوان في السبعينيات استقر التنظيم على مراحل للعضوية تضمن الولاء الكامل للعضو (العضو يجب أن يكون ذكرًا) وهي قبل الانضمام للجماعة مرحلتا «محب، مؤيد، ثم يلتحق بالتنظيم ليكون الفرد عضوا منتسبا بالتنظيم وبعد مرور عام يصبح عضوًا منتظمًا يحق له انتخاب مجلس شُعبته، ثم بعد مرور عامين يصبح «عضوًا عاملًا» يحق له تولي مناصب قيادية داخل شعبته.

(**) نقيب الأسرة هو المسئول عنها إداريا، والأسرة هي أصغر وحدة إدارية بالتنظيم، وتتكون عادة من أربعة إلى ستة أفراد. واسم «نقيب» يعود إلى مَن بايعوا الرسول في بيعة العقبة الثانية من أهل المدينة المنورة وولَّى عليهم الرسول نقباء من بينهم.

(***) أثناء حكم محمد مرسي في عام ٢٠١٣ وخلال ذكرى ٢٥ يناير الثانية قُتل ٧٢ متظاهرا سواء خلال الاحتجاجات أمام سجن بورسعيد على أحكام الإعدام على المتهمين في مذبحة استاد بورسعيد، أو اليوم التالي ببورسعيد خلال جنازة قتلى الاحتجاجات، أو في السويس والقاهرة على يد الداخلية، ودشنت اللجان الإعلامية لتنظيم الإخوان حملة «اغضب يا ريس» على فيسبوك، وأغلقت الصفحة بعد وصول السيسي للرئاسة.

قائد القسام المرابط المجاهد.. وكده

القاهرة ٢٠٠٠

أتناول المكرفون وأهتف بصوت جهوري:

- يا حماس إنتِ الدُّرة، في حلق الصهيوني مُرة.

مظاهرات الانتفاضة الثانية بجامعة القاهرة في ذروتها، يردد الطلبة خلفي بحماس بينما أواصل الهتاف بحرقة دعما لمن يدافعون عن أرضهم ضد آلة القتل الإسرائيلية التي تنكل بالمدنيين وتهجرهم.

يرفع أحد المتظاهرين صورة لأحد مقاتلي القسام فألحظها بانبهار، أتخيل لحظتها ماذا لو تمكن هؤلاء الأطهار؟ حتما سيعم الأرض العدل والحرية، مجاهدون من خير أفراد الأمة يقاتلون لرفع الحصار، لا يضرهم من خذلهم.

أحبهم حبا خالصا، هم من أنضج التيارات الإسلامية وأكثرهم اعتدالا وإخلاصًا. متأكد أنهم إن وصلوا للحكم فسينشئوا المجتمع الإسلامي المثالي.

غزة ٢٠١٣

«سنصعد إلى المرابطين على الحدود مع إسرائيل».

قالها لي صديقي في غزة فيخفق قلبي فرحا، خلال دقائق كنت أمام الفندق متحمسا للقاء المجاهدين الذين يتصدون للعدو.

انطلقت مع الصديق لنلتقي بقيادي في كتائب القسام الجناح العسكري لحركة حماس واستقللنا سيارته متجهين إلى الرباط.

وسط برد المدينة الساحلية يقف كل اثنين من كتائب القسام في مواقعهما المحددة، شرح لنا قياديو القسام أن الهدف من الرباط في المواقع الحدودية استنفار الأعضاء للحفاظ على الجاهزية خلال أوقات الهدنة، أما حين إعلان الحرب يختفي هذا الاستعراض، وتلجأ المقاومة للقتال بأسلوب حرب الشوارع.

ارتقينا تبَّة تطل على جبل الخليل الذي تحتله إسرائيل وقال لنا متأثرا:

- أرضنا على بُعد بضعة كيلو مترات ولا نستطيع الوصول إليها.

انتقل بحديثه إلى الوضع السياسي، لفت انتباهي أنه يتحدث عن فتح أكثر مما يتحدث عن إسرائيل، حاولت التفهم لاسيما وقد حكى لنا عن شهيد قسامي كان مستهدفا من إسرائيل وقضت عليه فتح انتقامًا من حسم حماس.

استمعت له وأسندت رأسي على مقعد السيارة مغمضا عينيَّ وأنا أذكر الله بطمأنينة، واصل حديثه عن معركة خاضوها ضد فتح حتى قال:

- سقط خلال مواجهتنا مع فتح بهذه المعركة ١٣، شهيدان و١١ قتيلا.

فتحت عينيَّ فجأة واعتدلت في جلستي، اكتشفت أن الأمر بحاجة إلى الاعتدال.

غزة ٢٠١٣

يمر القيادي القسامي على المرابطين بسيارته، أفراد القسام يرحبون به ويمازحونه، في مزيج إنساني راقٍ من الحب والتوقير العسكري.

نمر على أفراد الأمن الداخلي، يسألهم عن الأحوال بثقة فيردون باحترام وبشكل رسمي.

أما أفراد حركة الجهاد المرابطين فيعاملونه بندية كاملة وينتظرون أن يبدأ بإلقاء السلام، يبدون ضجرين من سؤاله عن الأخبار ويردون باقتضاب بارد.
كان لديَّ انطباع ما أردت التأكد منه فسألته بحذر:
- هل تقاتل بجواركم «كتائب شهداء الأقصى» التابعة لفتح؟
أجاب بحسم:
- «فتح» خونة.
لم أكن أحب «فتح»، ولكني انزعجت؛ فأكثر من ثلث أهل غزة يرفعون فوق بيوتهم رايات الحركة الصفراء.
ابتلعت ريقي وسألته عن حركة الجهاد فأجاب:
- ها دولا يتمولوا من إيران، فيه تمويل فيه رباط، ساعتين ويرحلوا، ضيوف يعني.
من اعتبرتهم منذ مراهقتي «من القابضين على الجمر» اكتشفت أن رفاق السلاح يرونهم «من القابضين».
بدأت أفهم الفكرة، أسأل عن الجبهة الشعبية فتأتي الإجابة:
- بدلا من أن يُستقطب الشباب إلى الجهاد يقولون لهم لنا أهداف وطنية، ومَن يريد الاستشهاد يتخلصون منه في عملية قتالية كي لا يبقى سوى أشباههم.
كان يملك إجابات قاطعة تليق برجل عسكري، أسأله عن حركة المجاهدين القريبة من القاعدة فيجيبني:
- الفشلة الذين لفظهم جيش القسام ينضمون لحركة المجاهدين، فاهم؟
كنت «فاهم» أكثر مما يتخيل.

غزة ٢٠١٣

سمحت فتح بالاحتفال في الضفة بذكرى انطلاقة حماس، وفي المقابل لأول مرة سُمح بانطلاقة فتح في غزة.
اعتبرتها بادرة طيبة ولكن صديقنا الحمساوي قال لي:
- اليهود كانوا يريدون أن يروا قوة حماس في الضفة.
لم يكن يرى في فتح سوى مدخل للحديث عن اليهود.
الكثير من أهل غزة نزل للاحتفال بذكرى انطلاقة فتح في شوارع غزة؛ ليس انتماء لفتح، ولكن عنادا مع سلطة حماس، وعقب صديقنا الحمساوي على ذلك قائلا:
- أغلب من يشارك في احتفالات فتح موظفو السلطة الذين يقبضون من رام الله ينزلون الانطلاقة، ومنهم يتفسحوا ومنهم يقابلوا بنات.
ثم أخبرني بالسر وراء الأعداد الهائلة في ذكرى انطلاقة فتح:
- ها دولا انطلاقتهم مختلطة.
كان تحليلا لافتا للارتفاع النسبي في شعبية المنافس السياسي.

غزة ٢٠١٣

في غزة ستجد أعلام حماس وأعلام فتح، ولكنك لن تجد أعلام فلسطين.
فوق الكثير من المساجد علم حماس الأخضر يرفرف بجوار المئذنة.

يزعجني الانقسام، فأسأل عن الوحدة لتأتي إجابة صديقنا الحمساوي:
- ما تنفع وحدة، مدير علاقات عامة في مستشفى عينته حماس، فيه غيره موظف يشغل نفس المنصب سبق أن عينته فتح، لو حدثت وحدة مَن يعمل، الحمساوي أم الفتحاوي؟ طاقم موظفين، الحمساوي أم الفتحاوي؟ كل وظيفة لها فردان(****).
اختتم صديقنا الحمساوي كلامه بأنْ مالَ نحوي قائلا بلهجة رجل يعلم:
- لن تحدث مصالحة.
في الوزارات، في المستشفيات، في المباني الحكومية، تسير كأنك داخل مقر حزبي لحركة حماس، فالموظفون كلهم من نفس الفصيل.
يعقب على ذلك مرافقنا عضو القسام:
- الآن معنا الحكومة والداخلية والموظفون وكل شيء، ما فيه حدا غيرنا، هذا يريحنا كثيرا في البلد.
أسأله ببراءة: لماذا لا ينضم القسام إلى الداخلية؟
- الحكومة ملف من ملفات حركة حماس، وإذا تمت مصالحة فتنضم عناصر أخرى فيذوب بينها جيش القسام وينتهي.
فكرت في كلامه، ووجدت أنه من غير اللائق أن أرد عليه الرد اللائق.

غزة ٢٠١٣

- خلي واحد يرمي صاروخ على اليهود، بيغتصبوه، ما كانت فتح تقدر تعمل هيك.
هكذا قال لي عضو فتح متحدثا عن تعامل حماس مع القاعدة، اللطيف أنه أخبرني فيما بعد أنه كان فرد أمن قبل أن تحسم حماس.
لم أسأله عما كان يفعله هو شخصيا عندما كان يحدث أمر مشابه سابقا مكتفيا بأن ذكرت الله مرددا: «سبحان من له الدوام»، وانتهزت أول جرافيتي لحركة المجاهدين القريبة من القاعدة لأسأل مرافقنا القسامي عنهم فأجاب:
- يثيرون لنا المشاكل، يضربون صاروخا فيستنفر القسام وتتوقف البلد، ليس لهم رؤية للجهاد ولا خطط، يقولون نريد الجهاد، ووقت الحرب لا تجدهم.
وواصل قائلا:
- ربنا يقدرنا عليهم هنا، ويقدر مصر عليهم في سيناء.
كان هذا مخالفا لتصوراتي عن أن أبناء حماس يستفيدون من السلفية الجهادية في سيناء، قلت له ذلك فرد قائلا:
- السلفية الجهادية لا يُدخلون لنا سلاحا ولا نريد منهم شيئا، ها دول يعتبروننا كفرة، والصواريخ التي يطلقونها على اليهود يسرقونها منا.
وبجوارنا كان هناك جرافيتي حمساوي كُتب عليه «كتائب القسام، صمتنا إعداد، كلامنا جهاد».

غزة ٢٠١٣

نستقل سيارة أجرة فى حي «تل الهوا»؛ وهو حي يطل على شاطئ البحر (الهوا نسبة للهواء على الشاطئ) غيرت حماس اسمه إلى «تل الإسلام» عقب حكمها لقطاع غزة.
في طريقنا يطلق أحد زملائنا ضحكة هستيرية، نلتفت فنجد مسجدا مكتوبا عليه «مسجد البورنو».

«البورنو» اسم عائلة شامية شهيرة، يلتقط زميلنا صورة للمسجد بكاميراته ونحن نغرق في الضحك، ويقول أحدنا إنه سيرفعها على فيسبوك، ولكن زميلنا الفلسطيني ينصحنا بألا نفعل إلا بعد مغادرتنا؛ لأنه أحيل للتحقيق في الأمن الداخلي بسبب رفعه صورة المسجد.

تجمدت الابتسامة على شفتيَّ وسألته بعدم فهم حقيقي:

- عفوا، إتحولت للتحقيق ليه؟

- رفعت صورة «مسجد البورنو» على فيسبوك، قالوا لي في التحقيق إنها إساءة للإسلام.

أشعر بأن هناك شيئًا ما خطأ فأسأل صديقًا حمساويًّا عن معاملة الأمن الداخلي للمواطنين فيجيب:

- الناس محترمة، أما إذا حدا من فتح يستجري ينزل بالليل أو يتسافل نعتقله.

قالها ببساطة باعتبار أنه أمر طبيعي جدا.

لم أرتح للإجابة، كان يتحدث عن عشرات الآلاف وليس على اسم فتح الذي اختلف معه سياسيا، ليس هذا النموذج «الإسلامي» الذي تخيلته لسنوات. شعر بما أفكر فيه فأضاف:

- بيضل الوضع بغزة أحسن ألف مرة من الضفة، كل المناضلين هناك بالحبس.

القاهرة ٢٠١٥

سافرت للمقاوم فوجدت الحاكم.

الوحدة الإسلامية الكبرى أراها تتمخض إلى انفصال، والآن أفهم أن تأييد المقاومة شيء وتأييد ممارسات حاكم شيء آخر تماما.

دعمي للمقاومة كحق مشروع لم يتزحزح، لكني الآن -وبوضوح- أدرك أن هذا ليس حلمي، ولا حتى يشبهه.

(****) كان يشير إلى حوالي عشرين ألف موظف استمرت السلطة الفلسطينية بالضفة في منحهم رواتبهم رغم استبدال حماس لهم بموظفين آخرين تمنحهم هي رواتبهم منذ حسمت عسكريا في ٢٠٠٧.

رباب المهدي.. لأنها تحب البشر أكثر مني

عندهم (٥ ديسمبر ٢٠١٢)(*****)

هل ترى هذا الأتوبيس الذي ينقل هؤلاء الريفيين؟
هل تلمح هؤلاء الشباب أصحاب اللحى المهذبة الذين يتمازحون مع بعضهم ببراءة ويتحدثون مع بعضهم بأدب.
احذرهم، فربما يقتلونك.

عندنا

على مرمى البصر شباب قاهري جميل، هؤلاء رفاقك، هؤلاء مَن كتفهم في كتفك.
هم متحمسون ومخلصون جدا، احرص أن تلوح بسجائرك أو تظهر أمامهم وأنت تسير بجوارك فتاة.
احرص، فستندم كثيرا إن لم يفهموا أنك معهم.

* * *

أنظر للجميع بريبة بينما كانت تنظر لهم رباب المهدي بأسًى.
أتجه مع رباب وإبراهيم الهضيبي إلى الاتحادية عندما نعرف أن صديقنا أحمد خير مذيع «أون تي في» تعرض لاعتداء من أنصار تنظيم الإخوان ونُقل للمستشفى.
في طريقنا نرى سيارات ميكروباص قادمة من الريف تتعرض للتكسير، شبابًا يقطعون جذوع شجر لاستخدامها كهراوات وآخرين يكسرون حجارة الرصيف لاستخدامها في التراشق، بينما مجموعه تقذف عواميد النور بالحجارة ليضمنوا الكر والفر في الظلام، وأخرى تكتب بـ «الاسبراي» سبابا على المحال التجارية.
المشهد مرعب؛ على جانبَي الطريق مجموعات ممن تم اصطيادهم يتعرضون للضرب أو الإهانة إما لأنهم مسيحيون وإما غير محجبات، أو قاهريون فقراء أو شباب شعرهم طويل، وإما -على الجانب الآخر - لأنهم ملتحون أو ريفيون أو يحملون كارنيه حزب السلطة.
أتلفَّت حولي بحذر صحفي اعتدته، أرى في الأفق فتيات يرتدين حجابًا قصيرًا «عادي» لا يشبه خمار الأخوات، أفهم أن الطريق أمان فأشير لرباب بأن نتجه من ناحيتهم لكنها تسألني ببساطة:
- ومن هنا لأ ليه؟
تستكمل طريقها متجهة لتجمع «الإخوة» فأستوقفها قائلا:
- تعالي يا دكتور نروح عند الناس بتوعنا.
- مفيش حاجة اسمها الناس بتوعنا، إيه بتوعنا وبتوعهم؟ دول برضه بتوعنا.
اعتقدتُ لحظتها أن كلامها مبهر وإنساني، واعتقدتُ أيضا أننا سنتعرض لاعتداء بعد قليل.

عندهم

أتلفَّت حولي بقلق، فأستاذة العلوم السياسية التي تتقدمنا سبق أن شن «الإخوة» ضدها حملة تشويه منظمة خلال انتخابات ٢٠١٢ حين كانت تدعم مرشحا منافسا لأخيهم في الله.
نقترب من متاريس جند الدعوة، يتحفزون لرؤيتنا فتقترب منهم رباب وتسألهم:
- جيتم تشتبكوا مع ناس في اعتصام ليه؟

رغم بساطة السؤال يرتبك الجمع قبل أن يرد أحدهم بعصبية:
- إنتِ عارفة لقينا إيه في الخِيَم؟
يبدو عليها عدم الفهم، تهز رأسها نفيا فيجيبها:
- الخِيَم مليانة خمرة وبيرة يا دكتورة.
- شارع الهرم مليان أزايز زى دي، منزلتش هناك ليه؟
تبرق عينا آخر فيرد بسرعة وقد شعر أنه ظفر بنا:
- أفهم من كده إنكم راضيين أصحابكم يشربوا الحاجات دي؟
كل مَن سألتهم عن فضهم للاعتصام حدثني عن الواقيات الذكرية في الخيام، فحتى تلك اللحظة لم يكن لدى أيٍّ منهم تفسير لسبب فضهم الاعتصام. فيما بعد تبلورت روايات أكثر تماسكا أن نزولهم لمنع اقتحام القصر(******).
نتناقش معهم لساعات. في عهد البراءة كنت أتصور أن بإمكانك إقناع قاتل بحرمة الدماء، لكن أحدهم أجابني:
- اطمِّن، ده فض سلمي للاعتصام.
ويقول لي آخر:
- چئۆ ئۍ ئۍ ئۑ ئى ئى ئـچ.
أما الثالث فيقول لي:
- ولا ناس حتموت ولا حاجة، شوية جُبنا، حيطلعوا يجروا وساعة الجد محدش منهم حيقف لنا.
ثم يقول بحسم:
- وقصدك تخوفني بأن كام واحد حيموت مظلوم، ما الحسين نفسه مات ظلم، ييجي إيه ده جنب إقامة شرع ربنا في الأرض ووجود حاكم مسلم؟

عندهم

كنت قلقا من أن يحاول أحدهم الاعتداء على أستاذة العلوم السياسية كما حدث معها في مظاهرات كفاية ٢٠٠٥، لكنها كانت تعقد شعرها فلم يتعرف عليها أغلبهم.
أكثر مَن استفزهم كان إبراهيم، والذي كان يظهر بالتلفزيون كثيرا حينها. أحدهم نظر لنا بغِلٍّ فسأله إبراهيم بتحدٍّ:
- فيه حاجة؟
- أنت شغال في أون تي عند ساويرس؟
جندي الدعوة يتصور أن مَن يظهر ضيفا في فضائية يعمل بها. خطر ببالي أن أشرح لهم أنني مَن أعمل لدى ساويرس لأني كنت آنذاك أكتب بـ «المصري اليوم» التي يملك أسهما بها، لكني احتفظت بملاحظتي «الذكية» لنفسي.
يهتف أحدهم فينا:
- أنت بتكره الإسلام يا إبراهيم؟
يهم إبراهيم بالرد لكني أسبقه ساخرا من المتحدث:
- هو بيكره الإسلام، وأنت يهودي، صح؟
أوشكنا على الاشتباك لكن تقدُّم رباب وسطنا أنهى الموقف وهي تنهرني قائلة:

- إنده إبراهيم يا أحمد، إنده أخوك.
نجلس على رصيف خالٍ بجوارهم، نرى منهم مجموعات تقرأ قرآنًا وأخرى تدعو الله، بينما مجموعات ثالثة تُكبر وهي تُلقي بالحجارة والمولوتوف في الصفوف الأمامية.
أتأملهم: قيادتهم أعلنت النفير العام وهم يجاهدون الآن، لم أتخيل أبدا أنني سأكون الطرف الذي يخوض ضده مجموعة من المسلمين معركة جهاد.
الأمر مُربك.

عندهم

كانت المرة الأولى التي أعاني ارتفاع ضغط الدم.
أتأمل الغل حولي، أعاهد نفسي إن مدَّ الله في عمري فسأعيش لأمنع سيطرة بشريٍّ على عقول فيأمرهم بالتقاتل فيفعلوا.

عندنا

تتركنا رباب فنعود للجهة الأخرى حيث رفاقنا بميدان روكسي. في الأمام شباب يلقون بالحجارة بينما مجموعة استولت على شُرفة مكتب بالدور الأول وتلقي بالمولوتوف وهي تشير للخصوم بإشارات بذيئة.
أرى مجموعة اصطادت «أخًا» في «كمين»، كانت كل تهمته ككل مَن يقع تحت البطش أنه ريفي. نحاول منعهم من الاعتداء عليه فيتذمر واحد من فريقنا قائلا بغضب:
- مش شايفين بيعملوا إيه في اللي بيمسكوه مننا؟
- دكتورة رباب حتزعل منك كده.
قالها أحدنا لهم، اندهشت مما اعتبرتُه سذاجة الجملة في موقف ملتهب كهذا، لكن الغريب أن الشاب نظر لعضو التنظيم الذي نمسك به بغيظ قبل أن يتركه قائلا:
- حسيبه عشان الست السكرة دي، بس ميجيش هنا تاني.
«الأخ» نظر لنا لحظة بذهول وهو لا يصدق أنه نجا قبل أن يعدو هاربا باتجاه إخوانه.
أعتقد أنه سيذكر اسم رباب طويلا.

٢٠١٥

رباب تقرأ أكثر مني وتعلم أفضل مني، والأهم أنها تحب البشر وتعمل من أجلهم أكثر مني.
خلال عامين توقفت عن أي تواصل إنساني مع «الإخوة» الذين يقاتلون البشر لأن مسئولهم أمرهم، حتى من كانوا أصدقائي الأقرب في فترات من حياتي أكتفي الآن بإلقاء السلام وهز رأسي حين أراهم صدفة دون أن أتبادل معهم كلمة.
يوم الاتحادية رؤيتي للحياة وليس للسياسة فقط تغيرت، لذلك أحترم كثيرا مَن كان بجواري ومازال لديه القدرة على التفاهم والنقاش(*******).

(*****) عندما بلغني في نهار ٥ ديسمبر ٢٠١٢ إعلان الإخوان النفير العام والحشد عند اعتصام المعارضين بالاتحادية كتبت عبر حسابي على فيسبوك: «الإخوان من ساعة ما وقفوا عند مجلس الشعب يحموه من المعارضين في يناير ٢٠١٢ وهم مش قادرين يستوعبوا إن مينفعش أي قوى تنزل لمعارضيها في نفس مكان تجمعهم عشان تثبت أنها أكتر أو أنهم أضعف، المنطقي تحصل اشتباكات بين المؤيدين والمعارضين، إن آجلا أو عاجلا قيادة الإخوان حتفهم لكن أما يبقى فيه دم وتار حيدفع الكل تمنه غالي».

بعدها بساعات قُتل غدرا ثمانية من أعضاء الإخوان خلال أحداث الاتحادية، فكتبت عبر حسابي على فيسبوك في يوم ٧ ديسمبر ٢٠١٢ تعقيبا على قتلهم وفرحة مجموعات من معارضي الإخوان فيهم بحجة أنهم معتدون: «رحم الله شهداء الإخوان، هم مظلومون وإن كانوا مع الفريق المعتدي، وغالبا القتلى كانوا ناس واقفة ورا وقُتلوا غيلة من سفلة معاهم سلاح من الطرف التاني، كلنا عارفين إن ٩٥٪ من اللي في المظاهرات مبيشاركوش في الاشتباكات وبيقفوا ورا، بالله عليكم لا تفقدوا إنسانيتكم ودينكم ونفرح في الدم».

(******) خلال حكم محمد مرسي وفي يوم ٢ فبراير ٢٠١٣ حاول شخص اقتحام قصر الاتحادية بونش فألقى الحرس الجمهوري القبض عليه، ويقضي المقتحم حاليا عقوبة السجن بتهمة اقتحام قصر الرئاسة.

وعقب انتهاء حكم الإخوان استعاد التنظيم هذه القصة للدلالة على أن معتصمي الاتحادية حاولوا اقتحام القصر بونش لتبرير قرار نزولهم للاشتباك في ديسمبر ٢٠١٢، رغم أن التنظيم لم يتدخل يوم حادثة الونش أصلا بعدما ثبت له بعد جريمة الاتحادية فشل فكرة الحسم بالتنظيم.

(*******) في اليوم التالي لأحداث الاتحادية عقد مرشد الإخوان محمد بديع مؤتمرا صحفيا قال خلاله: «يقولون نحن قَتلنا ولم نَقتل، ونحن الذين أُصبنا ولم نُصِب أحدا»، مؤكدا على أن «كل الشهدا من الإخوان»، ولكن في الذكرى الأولى لأحداث الاتحادية وبعد سقوط حكم الإخوان أصدر التنظيم بيانا اعترف بمقتل اثنين من معارضي الإخوان وهما الحسيني أبو ضيف و«شخص آخر» لم يسمه البيان؛ في إشارة إما إلى محمد السنوسي الذي سبق أن أعلنت الجماعة انتماءه لها قبل أن تُكذب عائلته ذلك في أكثر من لقاء تلفزيوني وتوضح أنه خرج متظاهرا ضد محمد مرسي، أو في إشارة إلى كرم سرجيوس الذي تؤكد أسرته أيضا أنه قُتل من الإخوان خلال الأحداث. اللافت أنه خلال عهد محمد مرسي وفي ٣٠ يونيو ٢٠١٣ قُتل ٩ من معارضي مرسي خلال هجومهم على مقر مكتب الإرشاد على يد مسلحين من التنظيم، في حين سُحل فرد من الإخوان وأصيب بإصابات بالغة لكنه نجا، وهي القضية التي يحاكم فيها مجموعة كبيرة من أعضاء مكتب الإرشاد، وللمفارقة كانت حجة الإخوان لإزهاق تسعة أرواح أنهم بلطجية وهم مَن جاءوا إليهم.

الباب الخامس:

الدنمارك

(مسافر زاده الدهشة)

كريستوفر أرزروني بورسن.. هو اسمه كده

(********)

(١)

أقف وراء نافذة فندق «اسكوت» بالعاصمة الدنماركية، أتأمل بسكينةٍ البرودة في الخارج التي يحميني منها نظام التدفئة في الغرفة، بينما أوراق الشجر الملونة الجميلة ترفرف أمامي.
إنها السادسة صباحًا ولا أحد في الشارع مطلقًا، فجأة تظهر فتاتان ببياض دنماركي لافت ليس فيه حُمرة، تمرّان تحت نافذتي قبل أن تتوقفا عند إشارة مرور.
أتأملهما طويلًا: الطريق أمامهما مفتوح كليًّا، وليس هناك أصلًا سيارات في الأفق لا قريبة ولا بعيدة، هما حرفيًّا تنتظران اللاشيء.
تقفان احترامًا لفكرة ما غيبية، ربما النظام وربما القانون وربما الاعتياد، لا أعلم ولكن الأمر لافت بالنسبة إلى شخص مثلي لم يفهم سوى في آخر سنوات دراسته الجامعية أن الدهان الأبيض نصف الممسوح على الأرض يشير إلى المكان الذي عليك أن تعبر الطريق من خلاله.
أحب إشارات المرور وأحب أوراق الشجر البرتقالية والحمراء وأحب هاتين الفتاتين.
هذا بلد رائع، وهؤلاء بشر رائعون.

(٢)

لا أهتم لو أسأنا لمشاعر مليار مسلم، أنا لا أهتم لمشاعر البشر أصلًا، أهتم بالحرية.
كنت أجلس في سلام نفسي يلازمني عادة فور الخروج من مطار القاهرة الحبيب، أستمع إلى محدّثنا بلا مبالاة واسترخاء كأي سائح نموذجي جاء للفُرجة.
ولكن - عفوًا- ما الذي سمعته؟ اعتدلت له، فيتابع الصحفي الدنماركي كريستوفر:
– مهما بلغ كلامي من قلة ذوق فهو مجرد كلام، وليس قتلًا كما تفعلون، لكن لو أردتم القتال تعالوا حاربونا.
وبدون أي مناسبة ذكر كريستوفر أنه أيّد نشر الصور المسيئة للرسول موضحًا:
- نحن لسنا مسلمين، محمد مات وإهانته لا تضر أحدًا، لسنا ملزَمِين بقواعدكم فلدينا قواعد أخرى، إن لم يعجبك ما تنشره جرائدنا عنه فلا تشترِها.
بدأت في استيعاب الأمر، فتمتمت فورًا بالعربية بعقلانية:
- لا، أمك بقى.

(٣)

كريستوفر أرزروني بورسن، يرتدي بزة أنيقة ويبتسم ابتسامة محترفة. هل تعرف أحمد الأنصاري؟ - كلنا لديه صديق اسمه أحمد الأنصاري يعمل في خدمة العملاء في أحد البنوك - حسنًا، إن كنت تعرف أحمد الأنصارى فهو يشبهه تمامًا.
انحيازات كريستوفر كانت واضحة، فيقول لنا:
- كصحفي أريد أن أكون صوت مَن لا يتحدث الإعلام عنهم، ليس الفقراء أو الأقليات، أريد التحدث بصوت أصحاب الأعمال الذين يدفعون الضرائب.
جدّ كريستوفر أرميني هرب من مذابح الأتراك إلى مصر، وعاش والد كريستوفر في حي الزمالك قبل أن يهاجر بابنه إلى الدنمارك.

الأرميني كريستوفر الذي ولد في القاهرة، انضم إلى حزب الشعب اليميني المعادي للمهاجرين.
ما أول ما تفعله بعد الهجرة من بلادك التي اضطُهدت فيها؟ الاستفادة من كونك تنتمي إلى دين الأغلبية والانضمام إلى حزب معادٍ للمهاجرين والأقليات.
منطقي جدًّا طبعًا.

(٤)

يقول لنا كريستوفر:
- لماذا أهتم برأي أبناء الدول الفاشلة؟ إنهم أغبياء.
تنتفض زميلتنا نهى النحاس، وتوضح له أن هذا تعميم خاطئ، فيرد الرّد الأعظم:
- هذا تعميم، ويعجبني.
ردّدنا هراء عن أن إندونيسيا وماليزيا اقتصاداهما قويان، وأن الإمارات قلعة تجارة. كنا نعلم أنها مجرد استثناءات، ولكن اشتد بنا الحماس حتى كدت أذكر له مصر ضمن الدول الناجحة.
العبث يولد العبث، لذا لم أنسَ أن أذكر للأرميني اسم تركيا في جملتين ليس لهما أي سياق. يكرهنا فنحتقره، يكذب علينا فنستفزه.
هذا عادل جدًّا.

(٥)

تندفع نحونا سيارة مرسيدس حديثة - عندهم التاكسي مرسيدس حضرتك - بسرعة كبيرة. ننظر إلى السيارة التي تقترب منا ونمضي في طريقنا غير عابئين بها، فتقول لي زميلتنا:
- جميل إنك تبقى شايف العربية جاية عليك وعارف إنها حتقف، إحساس حلو.
السيارة فعلًا توقفت، فهناك قواعد وأنا أحب القواعد.

(٦)

أنا مسيحي مخلص، دنماركي من كل قلبي.
هكذا يُعرفنا كريستوفر بنفسه وهو يشير إلى قلبه بحركة تمثيلية. لم أفهم لماذا يعرّف صحفي نفسه لزملاء صحفيين بأنه مسيحي مخلص، فمِلت على صديقي المصري قائلًا:
- وأنا أحمد، من السيدة، من عند بحة.
كريستوفر يكرهنا، ربما لأن مسلمين قتلوا أفرادًا من عائلة جده في أرمينيا منذ قرن، ربما لأن عم محمد البقال تحرّش بوالدته في حي الزمالك منذ نصف قرن، ربما لأنه يريد إحداث جلبة، فانسحاب من جانبنا ليحصل على بروبجاندا لطيفة بين مهووسي حزبه المتطرّف.
لا أعلم ولا أهتم، لكني أعلم تمامًا أنه يكرهنا.

(٧)

أتأمل الأمطار التي لا تتوقف من النافذة، في القاهرة أيضًا أحب تأمل الأمطار من النافذة، الفارق أن الأمطار عندنا تتحوّل إلى طين.
هنا لا تتحول الأمطار لطين، يقال إن السبب أن الشوارع هنا مجهزة، فهم يعرفون - وليس في الأمر أي مفاجأة - أن الأمطار ستملأ شوارعهم، فيخططون لها.
أيًّا كان السبب، فالأكيد أنني أحب الأمطار ولا أحب الطين.

(٨)

كان زميلنا الإعلامي إبراهيم الجارحي، أكثر من كريستوفر ثقافة وذكاء وهدوءًا، فتركناه يتلاعب به.
تتقلص ملامح كريستوفر كقط مذعور ويهوي في قبضته على المنضدة، فنتبادل الابتسامات الساخرة.
يبدو كريستوفر كهارب لتوّه من كومبارس جنود ريتشارد قلب الأسد المتحمسين في فيلم صلاح الدين الأيوبي.
أتخيله في سياق آخر، في مكان آخر وربما في زمن آخر، كانت نظرات الكراهية التي نتبادلها معه ستتحوّل إلى شيء آخر.
ربما نُشهر سيوفنا ضد بعضنا في القدس في القرن السادس، ربما نتقاتل وهو يحارب مع قوات التحالف بينما أنصب لقوات الاحتلال كمينًا في العراق.
أتخيل كريستوفر في سياق آخر: ملتحيًا يرتدي الجلباب ويقول إنه لا يهتم لمشاعر البَشَر، ولكن بالخلافة.
أعتقد أن كريستوفر كان سيحب سياقًا كهذا أكثر وسينتشي فيه أكثر، وسيكون له أتباع عددهم أكبر بدلا من كونه عضو حزب أقليةٍ يحصل على ١٣٪ في انتخابات بلد أوربي صغير، ويسخر الصحفيون المصريون من تفكيره فيضطر إلى الرّد على استهزائهم به وبثقافته بأدب القرود كما تقتضي القواعد.
يكرهنا كريستوفر ونحتقره، ثم نرحل جميعًا بهدوء. أحب هذا السياق الذي فرضته قواعد الصحافة والحضارة.
يناسبني أكثر حتى إن لم يناسب كريستوفر.
أكتب عن كريستوفر، وغالبًا بعد أعوام وأعوام لن يبقى منه إلا سخريتي منه.
تصافحنا في النهاية بابتسامة مصطنَعة، وأنا أعشق الجمال الساحر للابتسامات المصطنَعة.

(********) في أكتوبر ٢٠١٤ نظم المركز الإعلامي الدنماركي رحلة صحفية لمجموعة من الإعلاميين المصريين للدنمارك للاطلاع على التجارب الصحفية والإعلامية هناك، وشارك في هذه الرحلة الزملاء الصحفيون: أحمد الدريني وتامر أبو عرب ومحمد أبو الغيط وإبراهيم الجارحي ورامي جلال عامر، بصحبة نهى النحاس مدير المركز الإعلامي والزميلة إيمان محمود.

الولد السويدي الذي يدافع عن قضايا

إنسانية في فنزويلا

القاهرة ٢٠١٥

أمام مدينة الإنتاج الإعلامي.
لكي أصل إلى مقر عملي أعبر طريق الواحات السريع، المطلوب ببساطة أن أرصد سيل السيارات القادمة، وعندما ألمح واحدة تقترب أتحرّك نحو حارتها ثم أبطئ وأمر بعدها أو أعبر بسرعة أكبر منها فأتجاوزها.
المهمة صعبة لكنها ليست مستحيلة.
عندما كنت في العشرينيات كنت أتحدّى الجميع وأعبر أمامهم مراهنًا أني أسرع منهم، الآن صرت أكثر نضجًا وأترك السيارات القريبة تمر.
أراقب سرعة السيارتين القادمتين: الأولى أقرب لي لكنها بطيئة؛ أما الثانية فأبعد لكنها أسرع.
أحسبها: لو سِرْت بسرعتي العادية فسأعبر الأولى وستدهسني الثانية.
هناك دومًا حل، أعدو.
ها أنا أفعلها جريًا، نجحت، الشعور بالأمان فور أن تلمس قدمك الرصيف بعد العبور من الطريق السريع لذة عظيمة، لم يهتم بها الأدب العربي للأسف لانشغاله بوصف مشاعر الحب والهجر والكلام الفارغ.
العبور إلى الناحية الأخرى أسهل، فهناك مطب هائل الارتفاع قبل بوابة مدينة الإنتاج، هذه المطبات تدمر السيارات لكني لا أملك سيارة؛ لذا فهذه ليست مشكلتنا فليحل الآخرون مشكلتهم.
لا يوجد كوبري مشاة لكني وصلت مقر عملي، هذا خبر سار، والخبر الأفضل أنني لن أموت على الطريق السريع اليوم.

كوبنهاجن ٢٠١٤

خلال رحلتنا إلى الدنمارك نلتقي برئيس تحرير جريدة «بولتيكين» في مقر جريدته، تبادل الخبرات مهم بين الصحفيين. يحكي لنا عن آخر خبطاتهم الصحفية وعن رئيس الوزراء الذي يتصدّر صفحتهم الأولى بفضيحة اعتياده السفر بالطائرة على متن الدرجة الأولى، على الرغم من أن حملته الانتخابية كان مبدؤها الأهم التقشف الحكومي وتوفير النفقات.
يضيق صدري ولا ينطلق لساني، أتجاهل التعقيب وأفكر في حال المربع الذي شرقه البحر الأحمر وشماله البحر المتوسط.
ابتسمت بمرارة قبل أن أنظر بتقدير للصحفي الذي اجتهد ليكشف معلومة للقارئ.

كوبنهاجن ٢٠١٤

لا نعرف الدنماركية، يتناول صحفي الـ«بولتيكين» الجريدة ليشرح لنا تبويبها والموضوعات التي تعالجها.
يبدو متلجلجًا وهو يشير إلى صورة شاب في الصفحة الأخيرة قبل أن يقول لنا:
- لا أعرف كيف أخبر زملاء صحفيين بهذا، أشعر بالخجل.
يسكت طويلًا كأنما يتجنّب الحديث عن هذا الموضوع الصحفي الذي يراه مشينًا. نطارده بأسئلتنا فيحكي لنا أنها قصة خبرية عن شاب إسكندنافي سُجن ٦ أشهر في السويد بتهمة التحريض على كراهية السود.

التوقيف تم وفقا للقانون السويدي، لكن هذا السجن يعد غريبًا في بلد كالدنمارك تبلغ فيها حرية التعبير رسم العائلة المالكة بأوضاع عارية والتشكيك بالهلوكست.
هذا ما يخجل منه، بينما قدرنا يتمدد خلفي على أريكة وينفث دخان سيجارته ثم يردّد ببرود:
- بالنسبة لعندكم، ماتحاولش؛ غيرك ماقدرش.

القاهرة ٢٠١٥

أحاول العودة إلى المنزل.
أسير في منتصف الطريق عبر شارع مجلس الشعب في وسط القاهرة، فالرصيف تشغله مقاهٍ وانتظار سيارات وأرفف الباعة.
أمامي سيارات وبجواري بشر والطريق ضيق بسبب انتظار السيارات صفًّا ثانيًا، لم تبقَ إلا حارة مرورية واحدة تعبر منها سيارات تزاحمنا الطريق.
تزيد الإضاءة قليلًا فأفهم أن هناك سيارة خلفي، أميل يسارًا، أسمع صوتًا مزعجًا ورائي فأدرك أنها دراجة بخارية، أتجه يمينًا إلى جانب الطريق لأفسح لها.
تعبر الدراجة البخارية بجواري فأميل قليلًا، أقترب من فتاة فتلتفت نحوي بكامل وجهها بتحدٍّ متصورة أني ألاحقها.
أدرك أنني لن أقنعها بالعكس، فأحاول تجاوزها سريعًا، تعطلني بقعة مياه كبرى من بقايا أمطار هطلت أول أمس.
أقفز نحو حجر في منتصف الطريق قبل أن أعتمد عليه لأقفز ثانية عابرًا إلى الضفة الأخرى لبركة المياه.
أصل إلى منزلي مبتسمًا بثقة المنتصر. طالما آمنت أنك بقليل من المجهود والإصرار يمكنك أن تصل إلى هدفك.

«مالمو» السويدية ٢٠١٤

٣٦ دقيقة بالقطار لنعبر بحر الشمال ونصل من الدنمارك إلى السويد.
في بلدة «مالمو» الحدودية؛ الأمطار لا تتوقف والبرد يتسلل إلى أعماقك.
وسط التماثيل التاريخية والشوارع المبهجة يشير إلينا شاب سويدي يرتدي معطف أمطار أصفر، لا نلاحظه في البداية لكنه يكرر بإلحاح مبتسمًا. نعود إليه فيمد يده لنا بورقة قائلًا بالإنجليزية:
- توقيعات عالمية دفاعًا عن حق الفنزويليات في الإجهاض.
يبدو أصدقائي مندهشين من المطلب لكني بادرته قائلًا وأنا أوقع:
- أنا من أشد المتحمسين لحق الفنزويليات في الإجهاض.
لم أكن أبالغ، فقد كنت متحمسًا بالفعل، ولكني كنت سأكون بالحماس نفسه أيضًا إن كان هذا الشاب الأوربي يقف في الأمطار ليجمع توقيعات دولية من أجل حق الأجنة في أن يولدوا إلى الحياة، لأن كل من يطالبن بالإجهاض ولدتهن أمهاتهن بالفعل.

أي مكان، في أي وقت

تبدو المسافة عظيمة بين مشاكلنا ومشاكلهم؛ لكني مقتنع أن التصدي للفساد والقمع واحد في النهاية.

شعرت أن الفتى السويدي صديقي، كما شعرت أن الصحفي الدنماركي صديقي؛ هو يريد عالمًا يعتقد أنه أفضل، سأساعده على ذلك، لم يهمني ما يقاومه، ولكن فكرة «المقاومة» ذاتها.
إذا كنا في السعودية فسنكافح معًا من أجل قيادة المرأة للسيارة، وإذا كنا في أمريكا فسنكافح لمنع تعذيب البشر في جوانتانامو.
ليس هناك عالم مثالي إسلامي أو ليبرالي أو يساري أسعى إلى الوصول إليه أصلًا، لكن هناك دومًا معركة من أجل حقوق الناس، تستحق أن تعيش لتحقيقها.
ليس هناك عالم فاضل، هناك دومًا معركة من أجل عالم أفضل.

«يانسن».. صديقي الذي لم أتحدّث معه يومًا

كابول الأفغانية ٢٠٠١

عقب اجتياح قوات التحالف لأفغانستان، يستقل رجل بملامح غربية سيارة أجرة مرتديًا ثيابًا محلية أفغانية وهو يحمل مبلغًا ضخمًا من المال.

«يانسن» الصحفي الدنماركي يبحث عن تغطية من أرض الواقع للحرب، لكن جموع الأفغان يحيطون بسيارة الأجرة وقد ميّزوا بشرته البيضاء وملامحه الغربية.

آه، نسيت أقول لكم: احتقان الأفغان كان في أَوْجِه ضد الدنمارك، لأنها واحدة من دول التحالف وأرسلت ٧٦٠ جنديًّا للقتال إلى جوار الولايات المتحدة في حربها ضد طالبان.

كلنا يمكنه توقع مصير «يانسن».

«مالمو» السويدية ٢٠١٤

يثني صديقي محمد أبو الغيط على شيء ما في الدنمارك، ومنذ وصلنا وأبو الغيط يثني على شيء ما في الدنمارك.

كلما فعل كان صديقنا الثالث المقيم في أوربا منذ سنوات يؤكد على كلامه مادحًا «النظام» في أوربا، ولكنه انزعج جدًّا عندما انتقل أبو الغيط للثناء على سلوكيات البشر، فانتفض وهو يقول لنا:

- السويد مش مدينة فاضلة، فيه هنا لصوص ومتشردون من السويديين أنفسهم.

كان كلامه منطقيًّا، لكنني شعرت أن عصبيته الشديدة لأن أي ثناء على الأوربيين يعني بالضرورة الانتقاص من الشيء الوحيد الذي يفترض أننا أفضل منهم فيه، وهي «أخلاقنا». أبدو غير متحمس لعصبيته فيقول لي:

- أما الكهربا قطعت في ٢٠٠٨ حصل عمليات سرقة واسعة، الناس هنا أول ما تغيب سلطة الدولة حقيقتهم بتظهر.

- يعني زي اللي حصل أما غابت سلطة الدولة في ٢٨ يناير ٢٠١١، أو في يناير ١٨٨٦ أو مظاهرات ١٩٧٧.

يهز رأسه نفيا بإصرار قائلًا:

- الناس هنا مش زي ما أنتم متخيلين خالص، من بره هلَّا هلَّا ومن جوه يعلم الله.

القاعدة هي: قل إنهم أغنياء ومتقدّمون لكنهم بالضرورة أشرار وفارغون.

كابول الأفغانية ٢٠٠١

الحرب التي شاركت فيها الدنمارك أدت إلى مقتل ما يزيد عن ١٥٠ ألف مواطن أفغاني، لكن الغريب أن «يانسن» يقول واصفًا ما حدث معه:

- «بعد الهجوم على كابول كان الأمر مخاطرة كبرى ربما تكبدني حياتي ذاتها، إلا أنني بادرت ومددت يدي من داخل التاكسي، منتظرًا رد الفعل».

ويضيف: «بعدما مددت يدي، مدوا أيديهم بدورهم وسلّموا عليّ، ثم ابتسموا وابتسمت وتبادلنا الضحكات ورحبوا بي جدًّا».

«مالمو» السويدية ٢٠١٤

أسير في شوارع مدينة «مالمو» السويدية، والكلمة المفتاحية للسويد في ذهني هي «بشر أغنياء ينتحرون». فكل معلوماتنا عن السويد أنها الدولة التي كان يقال لنا عليها من شيوخ المساجد في

صغرنا: «بها أعلى معدلات انتحار في العالم، لأنهم أغنياء لكنهم غير سعداء». أبتسم للذكرى لكني فوجئت بصديقي أحمد الدريني يقول لي:
- إحنا طبعًا مستنيين الناس اللي بترمي نفسها تحت القطر أو بتحدف نفسها من فوق المباني زي ما كانوا بيقولوا لنا عن السويد.
ضحكت بشدة لتوارد خواطرنا عن ذكريات ساذجة. أتلفت حولي متأملًا ما نعتبره انحطاطًا أخلاقيًّا. الشهادة لله رأيت فتاة تُقبل شابًّا في منتصف الطريق، ولكني أرى يوميًّا في القاهرة شبابًا يتحرشون بفتيات وأسمع سبابًا جنسيًّا كل دقيقة في الطريق، لم أفهم لماذا نصنف ما يحدث في طرقاتهم بأنه دليل انحطاطهم الأخلاقي، ولا نعتبر ما يحدث في شوارعنا دليل انحطاطنا الأخلاقي.

كوبنهاجن الدنماركية ٢٠١٤

- قابلتم «يانسن» بالأمس، إنه رجل مجنون.
هكذا يقول لنا الصحفي اليميني «كريستوفر» المُعادي للمهاجرين والمؤيد لمشاركة الدنمارك في الحرب ضد أفغانستان في ٢٠٠١ وغزو أمريكا للعراق عام ٢٠٠٣ والحرب على داعش في ٢٠١٤.
ففي الدنمارك يقف «يانسن» وحده ضد يمين ويسار متشابهَيْن يريان أنه «كريه وقليل الأدب» ويعارض لمجرد المعارضة.
«يانسن» رافض لسياسات اليمين الدنماركي المتشدد، يتخفف من أعباء المؤسسات الصحفية وما تفرضه على محرريها من مواءمات ويعمل ككاتب مستقل، ومع الوقت تحوّل إلى أحد المؤلفين الذين تحتل كتبهم صدارة قائمة «الأكثر مبيعًا».
نجح الكاتب الصحفي رغم استقلاله عن المؤسسات، نقول له إن اليمين المتطرف يسبونه فيجيب:
- أنا أحتقرهم، فلماذا أهتم برأيهم؟
كدت أن أقوم لأحتضنه لحظتها.

كوبنهاجن الدنماركية ٢٠١٤

ننظر إلى الطعام بارتياب، فمنذ قدمنا نتجنب أغلب ما يقدم لنا إما لأنه لحم خنزير وإما لأنه غير مذبوح إسلاميًّا، فلم يبق من الطبق الذي أمامنا سوى شريحة جبن شيدر وشريحة بطيخ (آه بياكلوا هناك جبن ببطيخ) أكلناها ثم التفتنا إلى بعضنا برثاء ففاجأنا مضيفنا في الإذاعة الدنماركية قائلًا بتشنج:
- لا تقلّلوا من شأن المطبخ الدنماركي فنحن نفتخر به.
مع الوقت ألاحظ ضيقًا عامًّا من الحديث عن جمال فرنسا أو السويد مقارنة بهدوء الدنمارك، فالشعب الذي قوامه ٥ ملايين لديهم «أزمة انقراض»؛ إذ لا يوجد سواهم من يتحدث بلغتهم، بينما يضطرون جميعًا إلى إتقان الإنجليزية للتواصل مع العالم.

كوبنهاجن الدنماركية ٢٠١٤

يقول لنا «يانسن»:
- الإحصائيات العالمية تدّعي أننا «أسعد أمة في العالم»، مجرد أكاذيب، الحقيقة أننا من أكثر شعوب العالم تعاطيًا للمخدرات والمهدئات.

ثم يضيف: نحن في ركن العالم، أغلب من يعرفنا خارج بلدنا عرفونا لأن جريدة سخرت من نبيهم.
كان يتحدث بمرارة تشبه مرارتنا، شعرت أنه لو ولد في القاهرة كنا سنكون أصدقاء نلتقي في المظاهرات الاحتجاجية ونكتب ضد السلطة.
أتقدم منه لأشكره ولكني لم أفعل، ربما لأني كنت أريد أن أثرثر، وهو ما لن تمكني منه إنجليزيتي الرديئة التي بالكاد ستسمح بعبارات مجاملة سمجة لا تليق بما أحمله ناحيته من مشاعر.
لا أدري السبب، لكني لم أتحدث إليه وندمت على ذلك كثيرًا.
صديقي الذي لم أتحدث معه يومًا لم يضطرني إلى العناد؛ كان يعترف بأخطائهم وخطاياهم ببساطة تدفعنا في المقابل إلى الاعتراف بأخطائنا بالبساطة نفسها. بعدما تركته، أسير مع محمد أبو الغيط في شوارع العاصمة الدنماركية صامتَيْن قبل أن ألتفت إليه فجأة وأسأله بجدية وأنا أشير إلى الأرض تحتنا:
- الناس دي عاملة الشوارع رخام، حتتآمر علينا بأمارة إيه والنبي؟

الباب السادس:

حكاياتي

(ومضى قطار العمر والجو ده)

الذين يرتدون الأسود

٢٠٠٠

أسير فيسير ورائي، أتحرك فيتحرك وأقف فيقف، ألتفت فأجده خلفي.
لا يحمل لي ضغينة ولا حبًّا وربما ولا حتى اهتمامًا، فقط يمارس عمله.
سيماهم على ملابسهم الرسمية، لكن مخبر الجامعة لا يرتدي الملابس الرسمية ويريد أن يعرف اسمي.
كنت معروفا في الجامعة باسم أحمد عبيد، وعبيد لقب للعائلة لا وجود له بالبطاقة، أما أحمد فالاسم الرسمي لجيلنا؛ وبالتالي كنت بلا اسم.
في كل يوم أضع إصبعي على خانة الاسم حين دخولي للكلية، أكثر من مرة أراه يشير للضابط نحوي فأبتسم وأستدير عائدا لأدخل من باب آخر.
في البداية كنت كلما رأيته لمعت عيناي بالتحدي وراق لي النجاح، لكن مع الوقت تبدلت مشاعري نحوه فبدا مسكينا يرتدي ملابس رثة لا تتناسب مع الجامعة.
خطر لي أكثر من مرة أن أذهب إليه وأخبره باسمي. أقول هذا الخاطر لأصدقائي فنضحك بينما كنت الوحيد الذي أعرف أنني أعني ما أقول.
بعد عامين كاملين من البحث ألمحه في لجنة الامتحان فأستنتج أنني سر وجوده هنا؛ فالأمن يختفي تقريبا من الجامعة أيام الامتحانات حيث لا نشاط طلابيًّا. لم يتركني طويلا لتخميني فيقول لي وأنا خارج من اللجنة:
- مع السلامة أستاذ أحمد سمير محمود أبو العلا.
ضحكت وتبادلنا النكات. بدت لي سعادته طفولية خالصة بالوصول للاسم ففرحت له.
بعدها بأسبوعين تم استدعائي لأول مرة في مباحث أمن الدولة.

٢٠٠١

عندما استُدعيت أول مرة للاظوغلي ذهبت للعب كرة مضرب «بينج بونج» مع صديق لي من السيدة زينب ثم عدت لأطمئن أمي أنهم عاملوني بشكل جيد وقالوا لي إنه مجرد خطأ بالاسم.
رغم أن أمن الدولة جاء لبيتي ثلاث مرات إلا أنني لم يُقبض عليَّ مطلقا؛ ففي كل مرة استُدعيت للتحقيق تجاهلت الحضور.
مازلت أذكر مشهد أمي وهي توقظني وتناولني ورقة الاستدعاء لأمن الدولة قائلة بصوت مكسور:
- أمين شرطة بيقول إنه من أمن الدولة ساب لك دي.
بدت متماسكة لكني فيما بعد رأيتها تبكي، ليس من حق أحد أن يجعل أمي تبكي.
لعامين كاملين كنت أنام بعد الخامسة صباحا كي أتأكد أن الأمن لو جاء ليقبض عليَّ فسيجدني واقفا على قدميَّ.
ماذا سأفعل حين أراهم قادمين؟ لا شيء، أعلم هذا، لكن الاستيقاظ من النوم لأجد فوهة مدفع مصوبة نحو وجهي ورجال شرطة منتشرين في بيتي كانت فكرة مزعجة.
مَن ينتظر لا يحيا، وقد انتظرتهم طويلا.

٢٥ يناير ٢٠١١

ميدان التحرير، الثانية عشرة والنصف مساء.

أرى أول قنبلة مسيلة للدموع تتجه نحونا من مصفحة أمن مركزي تقف عند مدخل قصر العيني، أبتسم وأنظر لها باستخفاف فنحن نقارب الـ٣٠ ألفًا وأعداد الأمن المركزي تبدو تافهة مقارنة بنا، أثق في أننا لن نترك الميدان وستتجمع مصر كلها علينا صباحًا.
الدخان يغطي التحرير، الحشود التي كنت أزهو بها تتراجع منكسرة باتجاه عبد المنعم رياض، أهتف مطالبًا بالثبات قبل أن أختنق بغاز لا أفهم كيف أتعامل معه، وأجد نفسي أتقهقر إلى الخلف.
عند مدخل عبد المنعم رياض يقف صف أمن مركزي، يطلقون علينا الغاز بدورهم، لا يفكر مخلوق منا في اقتحام الصف اليتيم ونتفرق في شوارع جانبية.
أخرج من مستنقع الغاز ومعي شعور مرير بالهزيمة وقلة الحيلة، أستلقي على كورنيش النيل مقهورًا، فيميل نحوي شاب جامعي ويسألني باكيا:
- صاحبي جوه، غالبًا قبضوا عليه، إحنا سبناه ليه؟
أتطلع إلى الضباط في الجهة المقابلة بغضب حقيقي، لم يستمر الغضب سوى ثلاثة أيام بعدها أصبحت أنظر لهم برثاء.

٢٠١٢

كنا في شارع منصور.
ما سبب المظاهرة؟ ضد من؟ ما الهتافات؟ لا أذكر.
الشيء الوحيد الذي أذكره أنني كنت أقف في آخر الشارع وسط الحشود وأمامنا الأمن ثم فجأة سمعت صرخة.
التفتُّ خلفي فوجدت شابًّا وجهه كله دم، يضع يديه على ما كان عينيه قبل أن يخفضها مصدوما وقد تحولت يداه بدورهما للون الأحمر وهو يصرخ مذهولا:
- عيني.
حمَله متظاهرون سريعا ودفعوه في سيارة إسعاف، تراجع من حولي خوفا بينما وجدت نفسي أنهار على الرصيف متأملا ملامح أفراد الأمن برُتبهم المختلفة وهم يطلقون أسلحتهم نحونا. مَن أصيب كان خلفي وما أصابه مر بجواري، كان يمكن أن أعيش أعمى لو تحركَتْ يد الضابط سنتيمترًا.

٥ ديسمبر ٢٠١٢

في قسم الشرطة يشتكي صديقي أحمد خير من اعتداء جند الإسلام عليه أمام قصر الرئيس، ينتفض الضابط بغضب قبل أن يضرب بقبضته المكتب بتشنج وهو يقول:
- إزاي يفضوا الاعتصام؟
يبتسم خير وقد شعر أنه سيستعيد حقه، لكن الضابط بادره قائلا:
- أمال إحنا بنعمل إيه إما همَّ يفضوا الاعتصام، إحنا بس اللي نضرب ونفض الاعتصامات.

أغسطس ٢٠١٣

قال لك: «حظر تجول».
في كل أيام الحظر أذهب لمقر عملي كمُعد تلفزيوني، أتجاوز الحواجز الأمنية بالكارنيه يومًا وبالحوار يومًا وبالشجار أيامًا.

كقاعدة: ليس من حق أحد أن يحدد لي متى أنزل من بيتي؛ عملي أن أكتب، فكيف أكتب عن ما لم أرَه؟
بينما شوارع القاهرة ليس بها سواي وصديقي. تتوقف سيارة أمن بجوارنا ويندفع منها مجموعة ملثمون يرفعون نحونا السلاح ويشدون الأجزاء بحركة مسرحية. كانت أول مرة يصوَّب نحوي سلاح، واللافت أن من فعلها هو من يقال إن وظيفته حمايتي.
يصرخ صديقي فيهم بحزم:
- صحافة.
تأملَنا الضابط باحتقار وهو يواصل تصويب سلاحه لرأسي ثم أشار لي «تعالَ» فتعاليت؛ فمثله إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث، أقول له:
- صحافة، بعمل شغلي.
يبدو عليه خيبة الأمل وقد اكتشف أن يده مغلولة بسبب مهنتي فغمغم باشمئزاز:
- آه، سلطة رابعة.
ثم نظر لعيني بابتسامة واسعة وهو يقول:
- أنا بقى سلطة أولى.

٢٠١٥

مازلت أذكر ضابط الحظر، أذكر أنه حينما تأملني بتعالٍ تأملت أبدان رجال الشرطة يوم ٢٨ يناير وقد خانتهم وهم أحوج ما يكونون إليها.
لا أبالي به، فرائع أن وصية الرسول لم تكن «خاطبوا الناس على قدر رُتبهم العسكرية».
الغريب جدا أني لا أذكر - طوال سنوات عمري - أي موقف ساعدني فيه ضابط أو قام بحمايتي من أي شيء؛ وربما لهذا لا أشعر بالراحة في وجود أي ضابط شرطة مهما بدا ودودًا.
أعلم يقينا أن هناك ضباطًا عظماء على كوكب الأرض، ولكن الأمر وما فيه أنني حتى الآن لم يسعدني الحظ بأن أتشرف بلقاء أي واحد منهم.

عند الكعبة

القاهرة ١٩٩٧

تقول لي أمي:

- مشتاقة أزور الكعبة.

تبدو لي كلمة «مشتاقة» غريبة، العمرة «عبادة» فإلى ماذا تشتاق في العبادة؟ المهم أن نجمع أكبر قدر ممكن من الحسنات ونضع علامة «صح» أمام خانة العمرة.

أقرأ على اللافتة بشارعنا عن «عمرة بري بـ ٩٩٩ جنيه»، يبدو السعر مناسبًا لي كطالب جامعي إذ أكاد أجمع رقمًا قريبًا منه في عيد ميلادي.

قررت السفر، لكني لم أوفق لأسباب مرتبطة بعدم إنهائي الدراسة وعدم حصولي على التصريح من التجنيد.

أعتقد الآن أنه كان هناك سبب آخر.

القاهرة ٢٠١٤

أسافر بصحبة أمي.

في المنزل أصلي ركعتين قبل النزول. التوبة فكرة مذهلة تشعرك أنك شخص جديد فتتصالح مع نفسك وتكون أكثر حرصا على ألا تكرر أخطاءك.

خلال طريقي للمطار تراودني نفس أفكار أخطائي المعتادة، الغريب أن هذا لا يضايقني إطلاقا.

أبتسم بسلام نفسي فنحن لا نتغير فجأة، نحن نحاول، فقط نحاول.

مكة ٢٠١٤

في الحرم حولي مئات الآلاف، ورغم كل الزحام مازلت أملك القدرة على التأمل.

مع أول نظرة للكعبة أشعر بسعادة وعدم اكتراث بأي شيء، لا أخشى أي شيء وأحب كل شيء، أعتقد الآن أن كل الناس لطيفة حتى وإن لم يعرفوا هذا.

أغلب مَن أعرفهم بكى عندما رأى الكعبة لكنني ابتسمت براحة.

أول فجر أصليه في الحرم المكي أشعر بطمأنينة كاملة؛ طمأنينة ليس لها علاقة بأني قرأت قرآنًا أو استغفرت، فقط هو المكان.

أمشي بين الصفا والمروة وعندما أرى النور الأخضر أجري كما تقتضي الشعائر، هنا جرت المصرية هاجر بحثًا عن خلاص، فأشعر أنني أبحث عن خلاص من همومي كما تخلصتْ من همومها.

مع وصولي لنقطة النهاية أشعر بالفعل بالخلاص.

مكة ٢٠١٤

حول الكعبة تطوف سبعًا، بين الصفا والمروة تجري حينًا وتسير أحيانًا، ترتدي زيًّا غير مخيط وتُقصر شعرك في نهاية الشعائر.

لا أفهم مغزى الكثير من الشعائر. لو سافرت قبل عشرة أعوام لبحثت لأسابيع عن «الحكمة» وراء كل شعيرة ولاستخدمت كل ما أملك من مهارة لإثبات عظمة هذه الحكمة.

الآن لا أهتم. لست مضطرا لإثبات أي شيء لأي شخص، لست مضطرا أصلا لإثبات أي شيء لنفسي، فليس هناك معركة إيمان، هناك إيمان وفقط.

سعيد أني نفذت وفقط، لم أعد مهتما بإثبات أن الصيام صحي للمعدة ومفيد للجسم، والصلاة رياضة أو تنظيم للوقت، والحجاب عفة، هي عبادات وكفى.
أؤمن، فقط أؤمن.

مكة ٢٠١٤

قابلت سامي.
كان يربطني بسامي علاقة طيبة انتهت بمشاجرة تليفونية فور ترشح مرسي للرئاسة.
ابتسم لي بود فاحتضنته بود حقيقي. لم أحاول أن أتعامل بلطف يليق بالمكان وإنما كنت فعلا أتمنى له كل خير.
في اليوم التالي حرصت على الدعاء بالخير لكل مَن لا أطيقهم أو مَن كانوا أصدقائي وفرَّقتنا السياسة.
لا أهتم بأن أنقذهم، أريد أن أنقذ نفسي من الكراهية.
عموما تذكُّر الناس بالدعاء عظيم، تتولد لديك طاقة حب صافية وأنت تتخيل لكل شخص الدعاء الذي يناسبه، تكشف أنك تهتم بهم بشكل حقيقي وتتوحد كليا مع ضعفهم ورغبتهم وأمانيهم.

مكة ٢٠١٤

راحة.
أنعزل عن الأخبار السياسية ومواقع التواصل الاجتماعي بينما هاتفي المحمول في وضع صامت دوما.
العزلة في ذاتها رائعة، فما بالك وقد استبدلت الحديث مع الخلق بالتواصل مع الخالق.
خلال السعي بالصفا والمروة أرى طفلا في السادسة يرتدي زي الإحرام ويسير بجوار والديه.
يجري الطفل حتى يصل إلى أبيه وما إن يلحق به حتى يتوقف فجأة، يترك الأب يتقدم وحده قليلا ثم يعاود الجري ليصل إلى أبيه.
كان يضحك بسعادة دون تذمر من المسير، هو حتما لا يفهم لماذا يسير والده كل هذه المسافة لكنه خَلَق بهجته الخاصة. شَدَّته الأم ليسير بجوارهما بحنان ولكن الأب أشار لها أن تتركه ليواصل الطفل التوقف ثم معاودة السير والضحك.
صنع سعادته،يمكنني أن أفعل.

مكة ٢٠١٤

تحاول فتاة غير عربية الوصول إلى الحجر الأسود، لكن أمامها صفوفًا من الرجال الملتصقين به، يدفعونها في طريقهم إليه فتبكي لأنها لا تستطيع لمسه.
يلمحها شاب في منتصف الثلاثينيات كان يدعو الله ملتصقا بالحجر الأسود، يميل بكتفه نحوها ليجعلها وراء ظهره تماما ثم ينسحب فجأة لتجد نفسها أمام الحجر الأسود.
تنظر له شاكرة لثانية قبل أن تنشغل بالدعاء، لكنه لا يراها إذ يطيح به التدافع فورا، ما إن يستقر بعيدا حتى أراه يلتفت إلى الحجر الأسود بحب قبل أن ينهمك بهدوء مواصلا الدعاء بعيدا.
كان قريبا مني فأجلس معه ندعو بسكينة. هنا أجمل وأقرب لله حيث لا شجار ولا تدافُع.
في الحديث الإنسانُ عند الله أهم من الكعبة، أُحب الكعبة وأوقن أن البشر أهم منها.

القاهرة ٢٠١٥

لست صالحا، أنا فقط تضايقني سيئتي وأفرح بحسنتي، وفضيلتي الوحيدة أني لطالما غضبت ممن يضحكون على من يتعثر في الطريق.
دعوت الله بدعاء كثير، لكن بينه ثلاث دعوات كررتها بإلحاح ويقين في كل قيام وقعود. مر عام بالضبط على العمرة واكتشفت الآن أن ثلاثتها تحققن.
الله قريب، عدت مرتاح البال؛ هذا أهم كثيرا من أن أضع علامة صح أمام خانة العمرة.

كبرنا.. وكبرت اللامبالاة

١٩٩٨

في العام الجامعي الأول، أصل وأصدقائي الإسكندرية ليلا فنعرف أننا سنتسلم الشقة بعد أربع ساعات. مرت خمس دقائق فكدنا نختنق من الملل فقال واحد منا:

- يلَّا نعمل أي ابن كلب.

بدت الجملة عظيمة فتحمسنا. نجد أنفسنا نتحرك في اتجاه البحر وبمجرد رؤيتنا له نبدل ملابسنا سريعا ونندفع إلى المياه.

راية الخطر السوداء ترفرف والمنقذون رحلوا وأغلبنا أصلا لا يجيد السباحة بينما الشاطئ شبه خالٍ. يبدو أحد أصدقائنا مترددا لكننا كنا في مرحلة عمرية التراجع أمام ما يجرؤ أصدقاؤك عليه يعني أنك مخنث أو تفكر جديا في أن تكون مخنثًا مستقبلا. هز صديقنا المتردد كتفيه بلامبالاة مكتفيا بأن يقول بضيق:

- أول مرة أنزل البحر بالليل.

ينظر لنا أحدهم وهو يجلس مع زوجته على الشاطئ بدهشة وامتعاض، يبدو أنه لا يفهمنا، ومَن قال إننا نهتم؟

٢٠٠٠

أطرح أفكاري فيقول لي قريبي بعقلانية الكبار:

- البلد كده وحتفضل كده، أنت مش حتصلَّح الكون.

كان يقولها باعتبار أنها القاضية، المشكلة أن «حصلح الكون» كان بالفعل هو اسم مدونتي.

لم أكن لحظتها أتخطى العشرين عاما، ومازلت أذكر رد فعله عندما سألني مستنكرا: أنت فاكر نفسك حتغير العالم؟

أجبته بجدية: «نعم».

فلماذا أعتقد أنني مجنون؟

٢٠١٢

هل الكلام مكتوب بخط صغير أم أنني لم أعد أراه؟

اختفى هذا الموهوب الصغير الذي يتوقع له الجميع النجاح وأصبحت مجرد صحفي في منتصف الثلاثينيات حقق نجاحا يليق بعمره لا أكثر ولا أقل.

اعتدت الآن أن أحمل معطفا شتويا معي «احتياطي لأنها ممكن تبرَّد»، وأصدقائي الأصغر سنا يستخدمون تعبيرات لا أعرفها بينما يتلبس عليَّ تذكر أسماء أطفال العائلة وأناديهم بأسماء أخرى كما كانت تفعل أمي.

أفلام الخيال العلمي والرعب والحركة باتت مكررة لتنحصر بهجتي في أفلام العلاقات الاجتماعية والرومانسي كوميدي التي كنت أراها مملة.

أتغير، وزني يزيد ولم أعد أسمع عبارة «إيه ده؟ شكلك أصغر كتير»، عندما أخبر أحدهم بعمري، وتوقفت عن التسابق ليلا حتى نهاية الشارع جريا مع صديق عمري محمد يحيى.

ومحمد يحيى نفسه مات.

٢٠١٣

وصلنا الإسكندرية.
مرهقون من الرحلة ولم ننم سوى ساعات قليلة؛ تحت إلحاح زملائنا الأصغر سنا نزلنا معهم إلى البحر، على الشاطئ نتأمل المياه الزرقاء الساحرة باسترخاء كمجموعة رهبان بوذيين مخلصين للاشيء.
يتبادل أصدقاؤنا إلقاء الرمال على بعضهم فنتأفف بوقار، يجذبني صديقي الأصغر من يدي لأنزل معه إلى البحر فأهز له رأسي بكسل مؤكدا له أنني سأفعل «نُصايه في الآخر كده أما الشمس تتكسر».
يبدو كلامي منطقيا، فلماذا ينظر لي بدهشة؟

٢٠١٤

نشوى في رابعة ابتدائي... نشوى تدعوني لحفل زفافها.
هذان المشهدان هما كل ما أعرفه عن نشوى. رأيتها المرة الأولى عام ٢٠٠١ في خِطبة قريبي، وعام ٢٠١٤ كانت تدعوني لحفل زفافها.
فور أن أراها يتقافز أمام وجهي شيطان عبارة «ما شاء الله كبرتِ وبقيتِ عروسة، ده أنا فاكرك أيام ما كنتِ أد كده»، لكنني وبصعوبة أقهر نفسي كي لا أردد هذه السخافات التي طالما انزعجت من قائليها. هي لن تتوقف عن النمو لمجرد أن سيادتي لا أراها.
أصمت كي لا أردد سخافات كانت تقال لي. أنتبه كي لا أكون مثلهم ولكني - بمنتهى البساطة - مثلهم.

٢٠١٤

كي لا يفاجئني الزمن اعتدت أن أبادره، فمنذ اليوم التالي لعيد ميلادي أتأقلم مع حقيقة أن عمري قريبا سيزيد سنة أخرى، مَن يسألني عن سني أقول له ما سأبلغه بعد عام، لكن حِيَلي الدفاعية انهارت عندما كنت أدردش مع زميلة عمل فتقول لي وسط حديثها:
- وأنا أصلا مواليد ٩١ و...
قبل أن تواصل حديثها أقاطعها مازحا:
- بس بقى أنتِ طلعتِ مواليد ٩٧.
تنزعج قائلة:
- ٩١ والله.
هل تتصورين عزيزتي أن هناك فارقًا لديَّ بين ٩١ و٩٧ طالما ٩٠ في نهاية الجملة فالقصة انتهت.
بعدها بأيام تكمل ما بدأَته فتنادي قائلة:
- يا أستاذ أحمد، يا أستاذ أحمد.
ألتفت بجدية بحثا عن «أستاذ أحمد» لكنها تكررها بإلحاح أفهم منه أنها تقصدني.
أنا أستاذ؟ أفكر في أن أستوقفها كي لا تخاطبني باللقب الرسمي ثانية قبل أن أنتبه أنها لم تقرأ لي حرفا وبالتالي فالأستاذية ليس لها أي علاقة بأي تقدير لما أكتب، ولكن فقط بأني أكبر منها بأكثر من عشرة أعوام كاملة.

تتداعى أمامي صورة قريبتنا التي تماثلني في العمر وهي تنتفض قائلة بغضب لطالبة جامعية: «ماتقوليش يا طنط».
أتقبل لقب الأستاذية بضيق مكتوم فحالي أفضل من غيري، أستاذ أفضل كثيرا من «طنط».

٢٠١٥

لست عجوزا لكني يدهشني مرور الزمن، عموما عشت أكثر مما كنت أتوقع؛ فلطالما اعتقدت في طفولتي أنني - لسبب ما - سأُقتل في سن الثالثة والثلاثين.
صدمات الانفصال العاطفي والرفت من العمل وفَقْد الأحبة التي أرى انهيارات عصبية ونفسية بسببها تحولت لديَّ إلى «مجرد قصة سيئة أخرى».
أذكر مراهقتي وأذكر مرحلة العشرينيات لكني لا أذكر شيئا مما أفعله الآن في الثلاثينيات، ربما لأني لا أفعل أي شيء، فقط أنا أعمل، فالآن أستيقظ وأنا لا أريد الذهاب للعمل لكني رغم ذلك أذهب، أصبحت أتصرف بنضج كريه يليق بالكبار.
ربما فقدت اليقين بقدرتي على تغير العالم، لكن لديَّ نفس الإصرار على تغييره، اختفت مدونتي «حصلح الكون» ولكن رغبتي في إصلاحه لم تتغير.
توقفت عن «المناكفة» في المناقشات السياسية مكتفيا بهز رأسي لإنهاء الحوار. كبرنا وكبرت اللامبالاة، لكني لا زلت أندهش عندما يتعرض شخص ما للظلم. اعتدت أشياء كثيرة ليس من بينها الظلم. لا يهمني أن يمر الزمن ويذهب أي شيء، يهمني أن تبقى الدهشة.